صفية بنت السلطان

قصص الهلال للأولاد والبنات
دار الهلال





إلى كل أطفال العالم..
إلى كل أطفال مصر..
إلى أشرف..
الذى تحمل عيونه ابتسامة
كل الأطفال..

ماما نجلاء
بابا سمير





قصص الهلال للأولاد والبنات

دار الهلال

حكاية بنت السلطان

يكتبها لكم : سعيد عبد الباقي

[illegible]

قال الشيخ طاطا

* هذه الحكاية حدثت أيام السلطان « برقوش » .. والسلطان برقوش » كان سلطانا عظيما ورحيما ..ربما !! هكذا تقول كتب التاريخ القديم .

ومعظم هذه الكتب كتبها رجال يعملون فى خدمة السلطان « برقوش » وغير السلطان « برقوش » من الملوك والمماليك

* مكتوب فى هذه الكتب أيضا : إن السلطان « برقوش » كان عادلا وحكيما ، ولكن هذه القصة التى سمعها والدى العجوز من جده الشيخ الهرم تقول :إن السلطان « برقوش » لم يكن يعرف عن العدل شيئا ..

* ومكتوب فى هذه الكتب أيضا : أن السلطان « برقوش » كان طيبا وكريما..يعطى الفقراء من ماله وينصف المظلومين..ويساعد الضعفاء ضد المعتدين والظالمين..وإن شعب مصر كان يعيش فى عهده عيشة كلها سعادة ورخاء ..ولكن هذه القصة التى رواها لى والدى العجوز وأنا صغير .. والتى سأحكيها لكم الآن ..تقول : إن السلطان « برقوش » ومماليك السلطان « برقوش »





نهبوا الفلاحين .. وسرقوا الصناع والصيادين .. بكل الطرق المعروفة وغير المعروفة أيضا ..

لقد كان السلطان « برقوش » يبتكر وسائل عجيبة وغريبة لسلب الشعب ، ونهب أمواله ونتائج أعماله ..

* كان إذا خرج يوما إلى الحمام يأمر كل من يمر عليه فى طريقه أن يدفع دينارين لبيت المال ـ أى بيت مال السلطان ـ كضريبة كان يسميها «بركة وجه السلطان»

* وإذا ربى رجل من العامة شاربه ، فعليه أن يدفع دينارا عن كل مرة يخرج بشاربه إلى السوق .. وفى نفس الوقت فرض ضريبة كبيرة على كل من لايربى شاربه . وكذلك على الحلاقين .. حتى لايتهرب أحد من ضريبة الشوارب العامة ..

* واذا أشرقت الشمس يوما .. كان على كل فرد من أهل مصر أن يدفع درهمين من الفضة .. أما إذا حدث وغابت الشمس لأى سبب من الأسباب .. فإن ضريبة الشمس تخفض إلى درهم واحد ..

ولا تسألونى من أين يأتى أهل مصر بكل هذه الدراهم والدنانير ؟ فأهل مصر لا يكفون لحظة واحدة عن العمل .. بل إنهم يمرضون إذا لم يشتغلوا . هذه طباعهم منذ أيام الفراعنة .. يعملون ليلا ونهارا فى الحقول والدكاكين ، وفى البحر والطواحين .. ليقدموا الدنانير والدراهم لكل «برقوش» وحاكم ..

واعـذرونى يا أولادى .. إذا كان لكم رأى غير هذا !! فأنا عمرى الآن مائة عام وعشرة .. ولقد سمعت هذه الحكاية من أبى وأنا صغير .. فى مثل سنكم وفرق كبير بين أيامى وأيامكم .. فإن سرحت مرة أو شطحت فاعذرونى .. ولا تزعلوا منى فهذا حكم السن وحكم الزمان .. فساعدونى واسمعونى .. حتى لا أنسى شيئا من حكاية صاحبنا « همام » .. هذه الحكاية التى هى جزء من تاريخ قريتنا القديم .. شاهده جد والدى ورآه بعينيه .. وليس من رأى بعينيه كمن سمع بأذنيه .(أو حتى كمن قرأ كتابا .. مهما كان هذا الكتاب .. يا أصحابى)

قال الشيخ « ظاظا » :

* تبعد قريتنا الآن كما تعرفون ، عن شواطىء بحيرة المنزلة بمسافة كبيرة ، أما فى الزمان القديم .. فكانت « ميت سلسيل » تقع على شاطىء البحيرة تماما .. وكانت مجرد قرية صغيرة تحيط بها أدغال البوص والغاب والبردى .. ويفصل بينها وبين الحقول والأراضى الزراعية تلال ترابية ورملية ، وملاحات تنمو فيها أبصال النرجس التى تزهر مع الربيع .. فتغطى أزهارها الجميلة مساحات واسعة لا يبلغ البصر مداها ، وعندما تختلط رائحتها برائحة السمك والجمبرى .. تتكون رائحة غريبة مميزة اشتهرت بها قريتنا .. « ميت سلسيل » ..

* وكان كل أهل القرية فى ذلك الزمان يشتغلون بالصيد . ويغيبون فى البحيرة أياما طويلة ، ثم يعودون بالقوارب والمراكب الصغيرة محملة بخيرات البحيرة.. وما أن يصلوا إلى الشاطىء حتى تنقلب فرحتهم بالصيد إلى حزن وغم .. فعلى الشاطىء يكون «الداودار شبار» ورجاله من المماليك فى انتظارهم .. حيث يستولون على الصيد سدادا للضرائب وغرامات كثيرة يعرفونها، وأخرى لا يدرون عنها شيئا ..

* ولم يحدث مرة أن غادر القرية أحد من أهلها .. إلا إلى البحيرة .. ولم يحدث أن سافر أحد منهم أو عرف إلى أين يؤدى ذلك الطريق الوحيد الممتد جنوبا خلال الملاحات والتلال .. التى تغطيها أزهار النرجس وأدغال البردى ..

* لا أحد يعرف .. أو يسافر.. أو حتى يسأل . فالناس فى القرية يعتقدون أن رجال « الداودار » سيمنعونهم من مغادرة القرية ، وإذا ما ألح على أحدهم السؤال ، فانه كان يعتقد أن الجواب عند رجال «الداودار» سيكون بالعصى والسيوف . أو بالحبال ..

* وحدث ذات يوم أن وصل الى قريتنا رجل غريب .. عجوز وطيب ، له لحية بيضاء طويلة ..



يبدو معها كأحد شيوخ الحواديت القديمة ، ووراءه كانت تسير حمارته .. حمارة غريبة وعجيبة ولها عينا إنسان .. وابتسامة طفل صغير ..

لم يكن أحد من الرجال يومها فى القرية .. فقد كنا فى موسم الصيد .. وما أن دخل الرجل الشيخ الى القرية حتى أغلقت الأبواب .. كما يحدث دائما عند وصول الغرباء .

ووقف الأطفال وراء الأبواب والشبابيك ، ينظرون الى الرجل الغريب وحمارته فى خوف .. وهم يتعجبون منه ! كيف وصل إلى القرية ورجال «الداودار» يقطعون الطريق .. هل يكون من رجال «شبار» .. لا .. إنه ليس جنديا مثلهم .. وهو لا يشبه المماليك .. إنه يشبه أهل القرية أكثر .. لكن رائحته ليست رائحة القرية المعروفة .. المكونة من خليط من رائحة النرجس ورائحة الجمبرى .

❋ حبست كل أم طفلها خوفا عليه .. .. وبكى معظم الأطفال حينما أبعدتهم أمهاتهم عن الشبابيك وهم يريدون الفرجة .

قالت الأمهات : الرجل العجوز جاء ليخطف الصغار .. ليبيعهم عبيدا للمماليك .

ولكن الأطفال لا يصدقون أن هذا الرجل الطيب .. صاحب الحمارة الطيبة .. التى لها ابتسامة كابتسامة طفل صغير .. يمكن أن يؤذى طفلا ..

ولكن الأبواب ظلت مغلقة ، خوفا من الرجل الغريب الذى هبط إلى القرية فجأة ، والرجال غائبون فى البحيرة بحثا عن السمك ..

❋ سار الرجل العجوز وحمارته فى حوارى قريتنا القديمة الصغيرة .. دون أن يقابلهما أحد .. ودون أن يفتح لهما باب أو يخاطبهما إنسان .. وكان صوت بكاء بعض



الأطفال يرتفع وراء بعض الأبواب المغلقة .. فتقف الحمارة لتسمع ، وقد شدت أذنيها جيدا ولكن لاشيء غير هذا ..

❋ قال الشيخ لحمارته التى كانت تبتسم فى سخرية :

ـ ما رأيك يا « فكيهة » ؟

قال الشيخ «ظاظا» .. وكانت هذه أول مرة فى حياتى اسمع أن هناك حمارة أخرى لها اسم قبل حمارتى العزيزة « ست الملك »

❋ ومدت الحمارة رقبتها وهزت رأسها بعنف بطريقة جعلت أذنيها تصفعان وجهها بشدة كما تفعل الحمير عادة عندما تفكر .. ثم قالت :

ـ قرية .. مثل بقية القرى .. الناس فى البيوت ، والشوارع خالية ، لا شىء فى الشوارع سوى الخوف يا « زرزور » ..

قال الشيخ « ظاظا » :

ـ يا للعجب ! وهذه أيضا أول مرة أعرف أن هناك حمارة تتكلم .. قبل أن تخترع الأجهزة الحديثة المصنوعة من الخشب والحديد والتى تتكلم وتحكى الحواديت ..

وقبل أن يرد الشيخ رأت

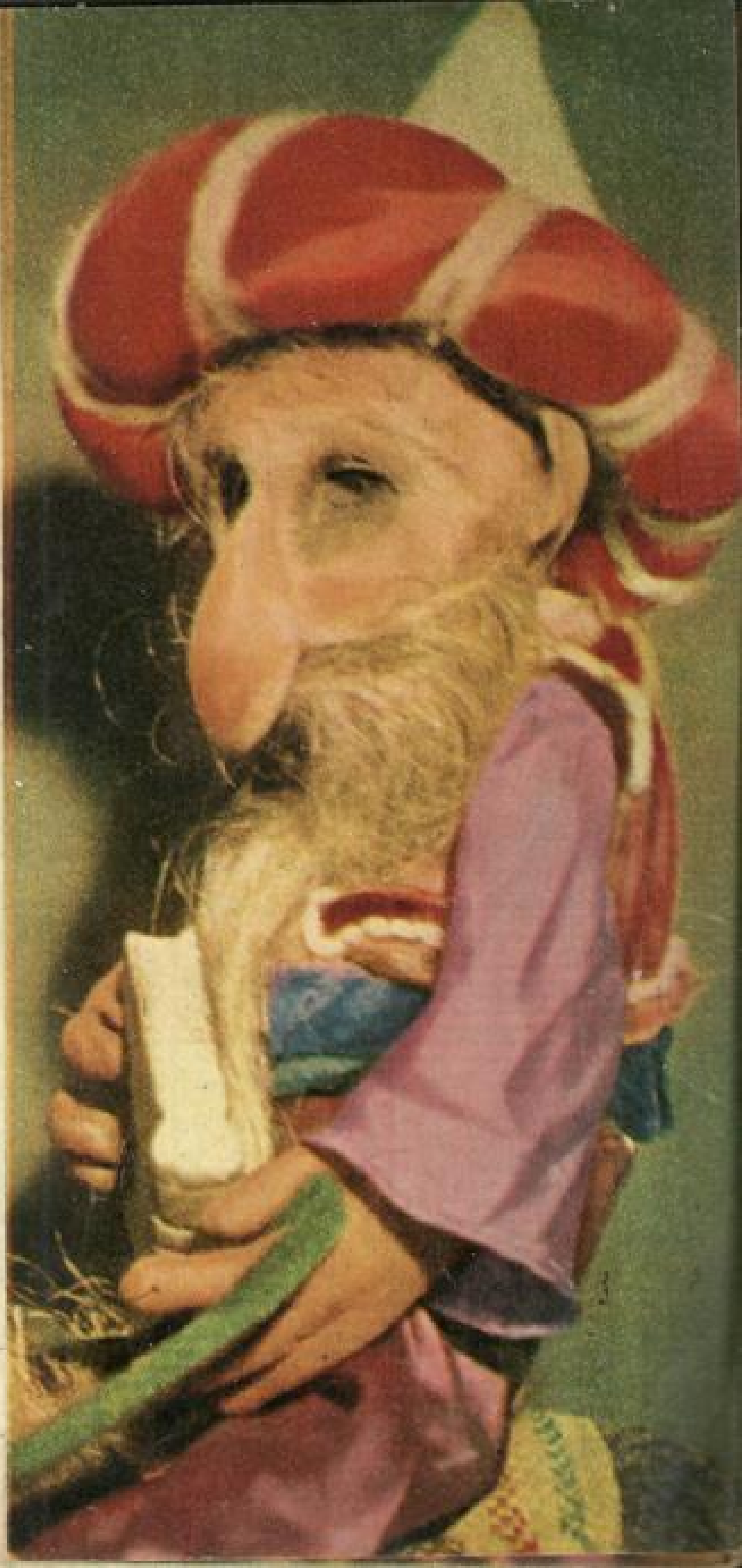


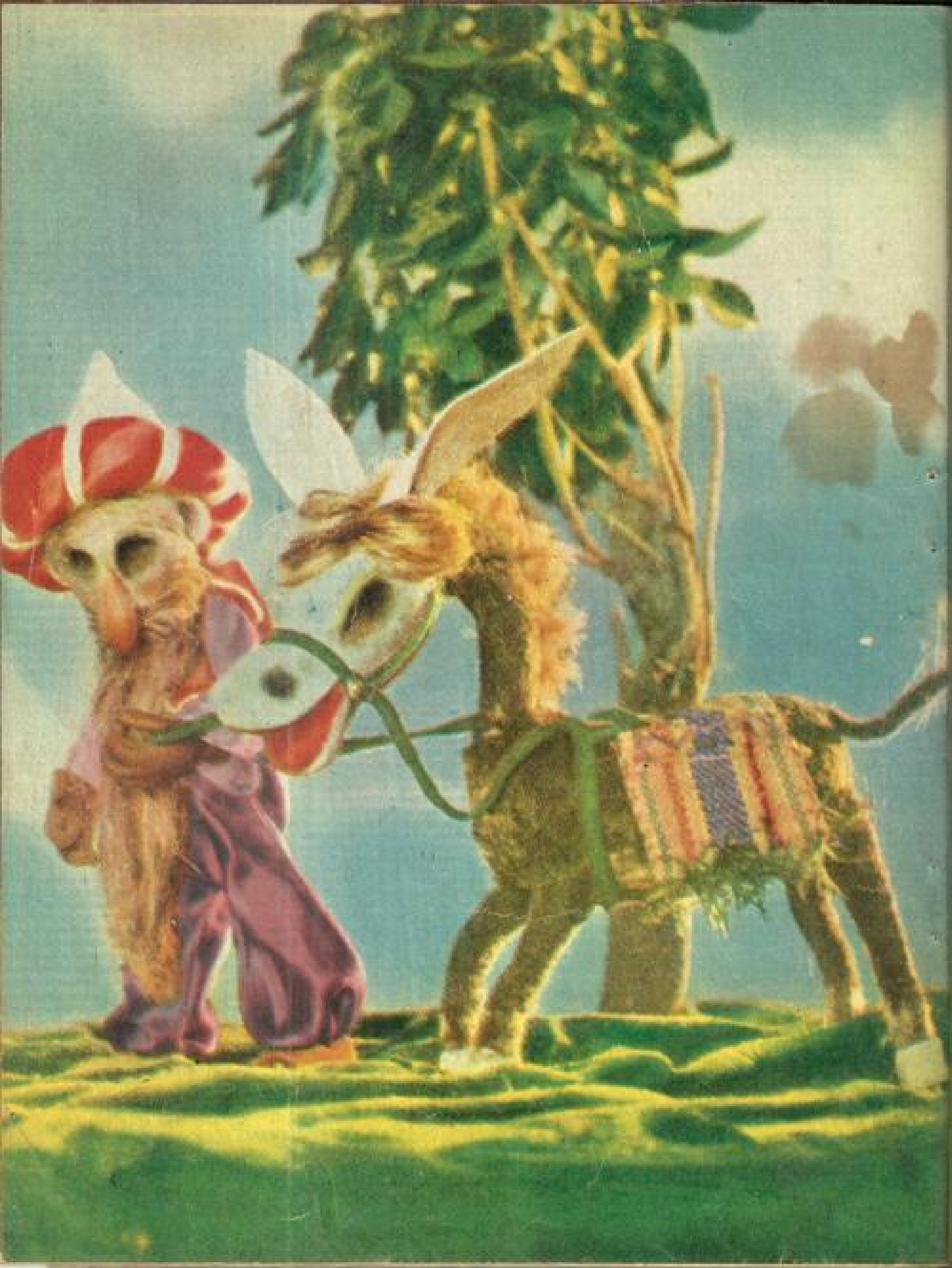




الحمارة كلبا يعدو خائفا مبتعدا عن طريقهما ..
فقالت :
ــ الخــوف ! والــكلاب يا « زرزور » .. وحتى الكلاب نفسها خائفة ..
ثم رأت أن تنادى الـكلب الهارب فصاحت :
ــ انتظر ياصديقى المرفوع الذيل .. انتظر ولا تخف منا .. أنا لست ثعلبة أو ذئبة، إننى مجرد حمارة عادية لا أوذى أحدا .. ولا أرغب فى أذى أحد ..
فتوقف الـكلب .. والتفت إليها يتأملها وهو يفكر .. ثم حك أذنه اليسرى .. كعادة الـكلاب عندما تتوقع شرا .. وبعـد أن تأكد من صدق الحمارة ومـن عدم رغبتها أو قدرتها على إيذاء أحد . قرر أن يؤدى واجبه ..
فانتفض نابحا بشدة ..
ــ هو .. هو .. هوو .. هووو ..
فقالت « فكيهة » لصاحبهـا الشيخ :
ــ انظر .. ماذا فعلتم يا بنى آدم فى هذه الحيوانات .. وكيف أفسدتموها ..
عندما ذهب الخوف وتأكد من مسالمتى .. يريد أن يثبت بطولته . فضحك الشيخ قائلا :
ــ ها .. حاولى أن تلصقى التهمـة ببنى جنسى .. هـذه هى عادة كل من يمشى على أربع .. أسد علينا وفى الحروب أرانب .
فاحتجت الحمارة قائلة .. وهى تحاول أن ترفع صـوتها حتى لا يضيع فى النباح :
ــ أيها الثعلب العجوز .. أنت تعرف من فعل فينا ذلك .. الا يعيش هذا الكلب فى قرية بشرية ؟
فسارع الشيخ يقول لها :
ــ لم يثبت لدينا بعد أن فى هذه القرية أحدا من بنى البشر . لم نر غير هذا الكلب الشجاع .. أما صوت البكاء الذى سمعته فقد يكون بكاء بعض جنيـات البحر الصغيرات ..
فتجاهلت الحمارة الرد عليه ، وصاحت بالكلب الذى كـان لا يزال ينبح :
ــ أيها الكلب الغبى .. كف عن هذا الذى تفعله واستمع الى ..
وفوجىء الكلب بصرختها .. فكف على الفور عن النباح .. وأخذ يهز ذيله كما تفعل الكلاب دائما عـندما تـتذلل .. ووقف فى أدب ينتظر ما تأمر به .
قالت الحمارة وهى تحاول أن يكون صوتها مقنعا :
ــ لماذا تنبح .. هه ؟! إننـا غرباء نعم .. ولكننا أصدقاء .. وقد جئنا للبحث عن أصدقاء لنا صغار فى هذه القرية .. أو كبار نحن لا نمانع ..

انظر إلى هذا الشيخ الطيب إنه لا يستطيع إيذاء بعوضة ..
فغضب الشيخ « زرزور » من هذا الذي تقوله .. وصاح محتجا :
ـ أنا لا أوذى أحـدا حتى البعوض بالفعل .. ولكن ليس لأننى لا أستطيع ولـكن لأننى لا أريد .. إننى ..
فقاطعته الحمارة بإشارة من رجلها الأمامية :
ـ لسنا تناقش الآن ضعفك أو قدرتك ياشيخ..ولكن أرجوك أن تسكت حتى أستطيع التفاهم مع هذا الكلب البطيء الفهم .. لم نحضر إلى هنا ونقطع كل هذه المسافة لنترك مهمتنا ونتشاجر .. دعنى أشرح لهذا الكلب الأمر بالأسلوب الذى يفهمه .. فانه يبدو عليه أنه لم يتناول طعـاما آخر غير السمك فى حياته..وهذا لابد أن يجعله أقل قدرة على فهم الآخرين ، فاصمت تماما ودعنى أعمل ..
* كان الكلب يتراجع ناحية الحائط وقد بدأ يشك فى نوايا الشيخ .. بعد أن سمعها تتكلم ، ولـكنه كان لا يزال يهز ذيله بشدة ..





فقالت له الحمارة :

ـ تعال يا صديقى .. نحن غرباء .. ونريدك أن تساعدنا وأن تدلنا، وسوف يكون فى ذلك خير كثير لك ولنا . لن تستغرق مهمتنا سوى ساعات قليلة نرحل بعدها .. ولن نسبب لك أية متاعب ..

❋ كان الشك قد ملأ رأس الكلب .. فاقترب منهما .. يتشممهما وليتأكد أن الشيخ بالفعل عجوز لا يؤذى أحدا .. وقال فجأة :

ـ ما المهمة التى جئتما من أجلها ياذات الأذنين الطويلتين ..

ولم يعجب الحمارة هذا الاسم ولكنها تجاهلت ذلك وقالت :

ـ هل هذه القرية خالية من السكان .. لابد أن هنا بعض الأطفال .. ولابد أن هناك بعض الحمير أيضا ..

فهمس لها «زرزور» فى تأنيب:

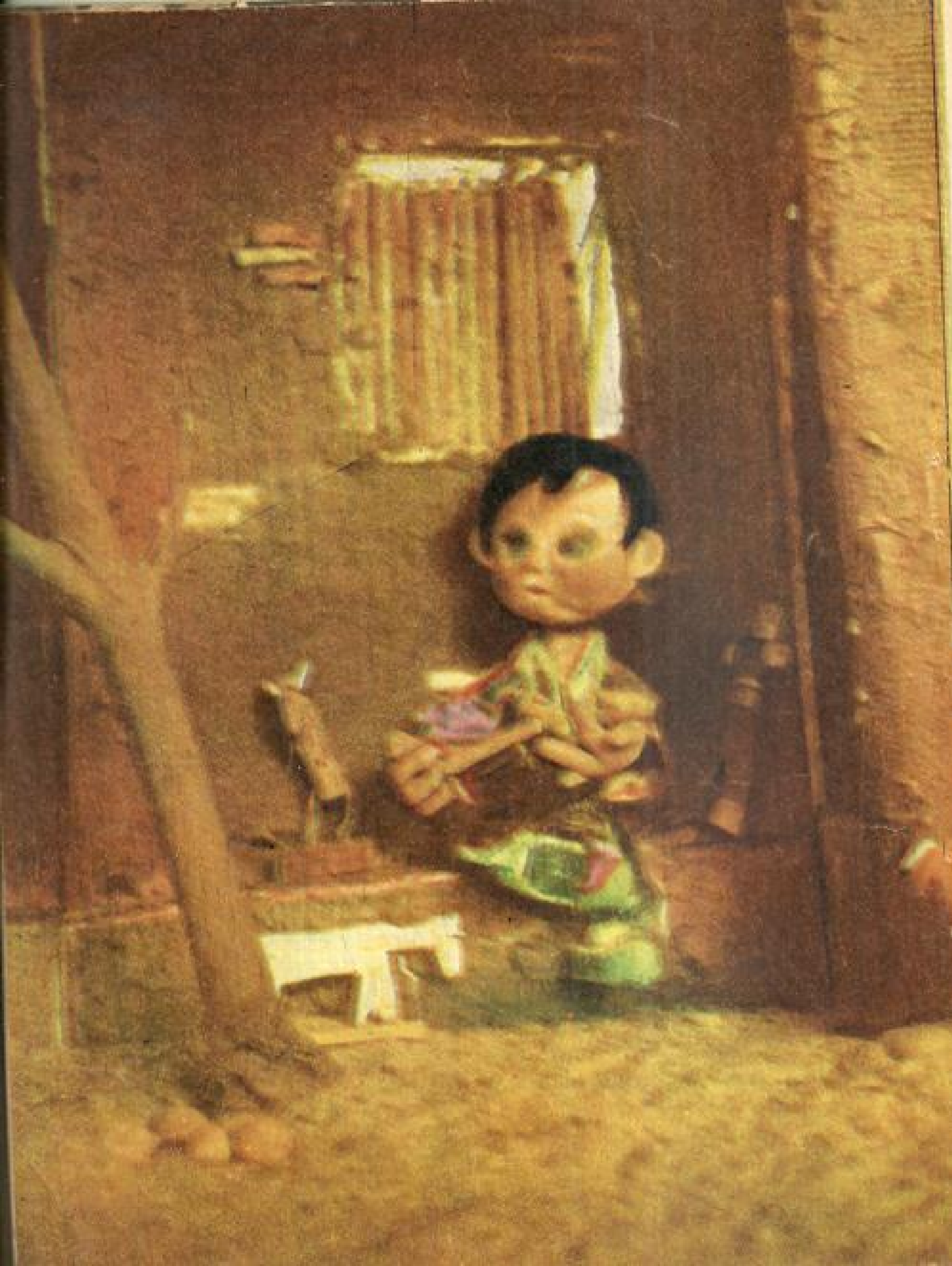
ـ ولماذا تسألين عن الحمير . نحن لم نأت إلى هنا بحثا عن المتاعب ، لاتضيعى الوقت فى بحث مشاكلك العائلية .. واسأليه عما نريد باختصار، فانه يبدو عليه قد نفد صبره ..

وبالفعل كان الكلب يتأهب للنزال والهجوم .. فقد تأكد أنهما إما جوسوسان أو تاجران للصيد جاءا ليسرقا الأطفال .. فى غياب الرجال .. وأخذ الكلب يتراجع وهو يبتسم إعجابا بالفكرة التى توصل إليها بذكائه ..

ودهشت الحمارة والشيخ لسلوك الكلب المفاجىء .. ولكن قبل أن يجد أحدهما وقتا ليسأله عما به .. كان نباحه يملأ الساحة .. هذه المرة كان نباحا غريبا مسطوطا كأنه يستنجد بأحد ما .. ولم تمض دقيقة حتى امتلأت الساحة بالكلاب من كل نوع .. جاءت صارخة تنبح وتهاجم الغريبين دون كلمة، وألقى الشيخ اللوم على الحمارة لأنها لم تشرح الأمر للكلب كما يجب .. واتهمته الحمارة بأنه السبب لأنه كان يقاطعها باستمرار ..

واشتد هجوم الكلاب .. واحتمى الشيخ بالحمارة ، وكانت هى تحاول الاحتماء به . ووجد الاثنان فى جدار قريب حماية مؤقتة .. واستسلم الاثنان للخطر، وعلا النباح واشتد ، وأخذت المسافة تضيق بين المهاجمين والمحاصرين شيئا فشيئا .. واختفت ابتسامة الحمارة التى تشبه ابتسامة الطفل .. وحلت محلها نظرة تعجب ودهشة .. فهذه أول مرة فى حياتها تقابل كلبا على هذه الدرجة من الغباء ..





قال الشيخ « ظاظا » :

كان الفتى « همام » يجلس فى دكانه .. يشتغل !

قلنا :

ــ يا عم « ظاظا » .. وماذا فعلت الكلاب بالشيخ «زرزور» وبحمارته الظريفة ؟!

قال الشيخ « ظاظا » :

ــ سوف آتى إليكم فى الكلام .. لا تتعجلوا .. ألا تعرفون أصول الحكاية .. أنا أشوقكم .. حتى لاتشردوا بعيدا عنى .. وعن حكايتى ، هذه هى الأصول

ولكننا صحنا به :

ــ لا تشرد أنت .. وقل لنا .. ماذا جرى للشيخ وللحمارة ؟! ..

ولكن الشيخ « ظاظا » لم يعجبه ما نفعل .. فغضب وقام محتجا وهو يقول :

ــ إذا كنتم تريدون حكايتى .. فعليكم أن تسمعونى دون مقاطعة أنا حر .. أحكيها كما أريد .. أما إذا كنتم تريدون حكاية على هواكم فابحثوا عن أحد آخر يحكيها لكم .. سلام عليكم ..

صحنا جميعا فى استعطاف :

ــ لا .. لا .. ياعم الشيخ « ظاظا » .. لا تتركهم هكذا .. ولا تتركنا .. سنسكت سكوتا ولن نقاطع مرة أخرى .. لقد خوفتنا بما فيه الكفاية .. هل أنت «الداودار ظاظا» .. ها .. ها

ثم سكتنا ..

وسكت الشيخ ..

وطال سكوته وهو ينظر فى عيوننا كأنه يسألنا عن شىء .. ولكن أحدا لم يجرؤ على الكلام ..

فصرخ فينا غاضبا :

ــ قلت لكم أن « همام » كان فى الدكان يشتغل .. فلماذا





لاتسألوننى ماذا كان « همام » يعمل ؟..
هذا الشيخ حيرنا .. إذا سألنا غضب وإذا سكتنا زعل .. على العموم .. قلنا :

ــ وماذا كان « همام » يشتغل ياشيخ « ظاظا » ؟

قال الشيخ « ظاظا » :

ــ هذا مهم جدا .. عمل « همام » هام جدا فى حكايتنا .. أتعرفون ماذا كان يعمل « همام » ؟!

قلنا فى دهشة :

ــ وكيف نعرف ؟! .. لم يقل لنا أحد ماذا يشتغل « همام » .. عجيبة !!

فابتسم الشيخ واعتدل فى جلسته وقال :

ــ أنا أقول لكم ..

لقد كان الفتى « همام » .. فنانا عظيما .. نعم .. كانت قطعة الخشب القديمة والجديدة أيضا .. تتحول فى يديه إلى تحف جميلة .. إلى تماثيل ولعب .. وعرائس .. كانت كل طفلة فى قريتنا تملك عروسا من صنع يدى « همام » ..

وكان كل طفل فى القرية عنده حصان أو عربة أو قارب صغير صنعه « همام » .. كان « همام » صانع ابتسامة كل طفل فى القرية ..

وطول الوقت كنت تجده جالسا على مصطبة قديمة فى آخر القرية يسميها الدكان .. يصنع ابتسامات الأطفال .. على هيئة لعب وعرائس وأشياء أخرى كثيرة وجميلة

كانت القرية كلها تحب «همام»
وكان « همام » هو طفل القرية كلها ..

صحيح أنه لم يكن له أب .. ولم تكن له أم على قيد الحياة . أو معروفة .. !!
ولكن جميع الرجال كانوا آباءه ..
وجميع الأمهات فى القرية أمهاته ..

وكل بيوت القرية كانت بيوته وأطفالها إخوته ..
ولم يكن « همام » يعرف من هو ؟! .. ولا أحد فى القرية حتى الكبار منها لا يعرفون ...

وفى قرية قديمة وصغيرة مثل قريتنا ... تقع على شاطىء بحيرة ويعمل أهلها فى الصيد ... فان الناس يحكون دائما حكايات كثيرة ، وأساطير عن جنيات الماء الجميلات ، وعن عرائس البحر التى تظهر فى الليالى القمرية . فوق الأمواج . والتى كثيرا ما تتزوج من رجال الأرض ..
أيكون الفتى « همام » ابن احدى هذه العرائس .. تزوجت أحد الصيادين ؟ لا أحد يعرف .. ولا أحد يحاول أن يعرف ! ..

فـ«همام» هو ابن القرية كلها .. هذا هو كل ما نعرفه .. وما كان يعرفه أهل القرية أيامها .. كل مايعرفه الناس أنه يصنع ابتسامة كل طفل فى القرية حتى فى الأيام الحزينة التى يبكى فيها الكبار . عندما يأخذ « الداودار شبار » ناتج عملهم وشقائهم .. ويتركهم للجوع والفقر وللأحزان ..





ولكن أحدا منهم لم يكن يعرف أن هناك حزنا دفينا يملأ قلب « همام» الصغير ، وأنه كان حزينا فى كثير من الأيام ..

وأنه فى ليال كثيرة كان يذهب إلى شاطىء البحيرة .. أو إلى مكان خفى وسط أدغال النرجس والبردى .. ليجلس وحيدا يفكر ..

كان « همام » يحلم بالبلاد البعيدة .. ويسأل نفسه كثيرا عما وراء هذه البحيرة ..

وإلى أين يؤدى ذلك الطريق الممتد عبر الملاحات ..

كان « همام » يحلم بجزائر خضراء ومدن كبيرة وأناس ذوى لحى بيضاء .. كان يحن لشيء بعيد مجهول لا يعرف ماهو .. ولكنه كان دائما يجعله يسأل .. ويريد أن يعرف .. ولكن ماهو هذا الشيء .. لا يدرى « همام » .. فكان كلما خلا إلى نفسه بكى ..



أما عندما يكون وسط الأطفال أو مع قطع الخشب الصغيرة .. التي يبدع منها اللعب والتماثيل .. فكانت له ابتسامة أرق من ابتسامة أي غلام آخر . ابتسامة رائعة تشبه ابتسامة زهرة النرجس في الصباح ..

ومن ذلك اليوم ..

كان « همام » يشتغل وهو يضحك .. كان يصنع دمية تشبه « الداوادار شبار » راكبا حمارا عجوزا ووجهه ناحية ذنب الحمار .. وكان « همام » يتوقع أن يجعل أهل القرية الغائبين يضحكون من القلب عند عودتهم .. عندما يرون هذه اللعبة ..

كان منهمكا في العمل عندما سمع نباح الكلب الأول .. ولكنه لم يترك مابيده .. فلا بد أن أحد الكلاب يلعب !! ولم يتوقع وصول أحد إلى القرية .. فالكلاب أصبحت لا تنبح عند





وصول غرباء .. لأنه لا يصل إلى القرية غرباء سوى رجال « الداودار » وهؤلاء تخافهم الكلاب حتى الموت .. وبعدفترة.. سمع « همام » نباح الكلاب الكثير ..

فانتبه إلى أن شيئا خطيرا ..لابد قد حدث ! ..

فما الذى جرى ياترى ؟! ..

ترك « همام » مابيده واندفع يجرى ناحية الأصوات .. وفى الساحة رأى الشيخ العجوز الطيب فى حالة يرثى لها ..والكلاب تحيط به وبالحمارة وتهاجمهما فى عنف .. فلم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك ..عندما وجد الكلاب تهاجم بكل هذه الشجاعة التى لا يملكها الشيخ العجوز وحمارته .

وما أن سمعت الكلاب ضحك « همام » الساخر .. حتى توقفت عن النباح .. وهزت ذيولها خجلا ..وأسرعت تختفى فى الحوارى القريبة ..

❋ وعند ذلك استعادت الحمارة شجاعتها .. وعاد إلى الشيخ هدوؤه .. ووقف الثلاثة يتأمل كل واحد منهم الآخر فى صمت ..

وصاح « همام » يعرفهم بنفسه :

ـ اسمى « همام » .

وأسرعت الحمارة تقدم نفسها إليه أولا .



— وأنا « فكيهة » حمارة الشيخ « زرزور » .. وهذا هو صاحبى الشيخ « زرزور » .. إنه رجل شجاع .. ولكنه يخاف الكلاب فى بعض الأحيان

وهمس « همام » فى حب :

— إننى أعرفكما منذ وقت طويل ..

فالتفتت «فكيهة» إلى صاحبها.. وقالت فى دهشة :

— هذه القرية تحيرنى ..سنرى ونسمع فيها العجب ..لست أفهم كيف يعرفنا وهو لم يرنا قبل الآن ..

ووجدها « زرزور » فرصة لاستعادة مكانته، وإعادة الحمارة إلى المركز الثانى .. فليس هذا نقاشا مع الكلاب ..





قال الشيخ ..

ــ هذا هو الفرق بيننا وبينكم ياذوى الأربع .. أنا أفهم مايريد أن يقوله .. وليس غريبا أبدا أن يعرفنا هذا الفتى .. فلم تفهم « فكيهة » شيئا ..

قلنا للشيخ « ظاظا » :

ــ ونحن أيضا لم نفهم شيئا .. فكيف يعرف « همام » الشيخ « زرزور » وحمارته .. وهو لم يرهما من قبل ؟ ..

وبدت على وجه الشيخ « ظاظا » علامات خيبة الأمل .. وقال :

ــ كنت أظن أنكم أكثر ذكاء .. معذورة يا « فكيهة » ..

ولما سألنا فى احتجاج ..

ــ وهل فهمت أنت ؟!

صرخ فينا غاضبا :

ــ أنا الذى أحكى الحكاية .. مادمتم لا تفهمون .. فاسكتوا وانتظروا حتى أكمل .. ماذا أصنع إذا كنتم لا تفهمون .. لا تقاطعونى .. ولو تكلمتم كلمة واحدة .. فلن أحكى شيئا ..

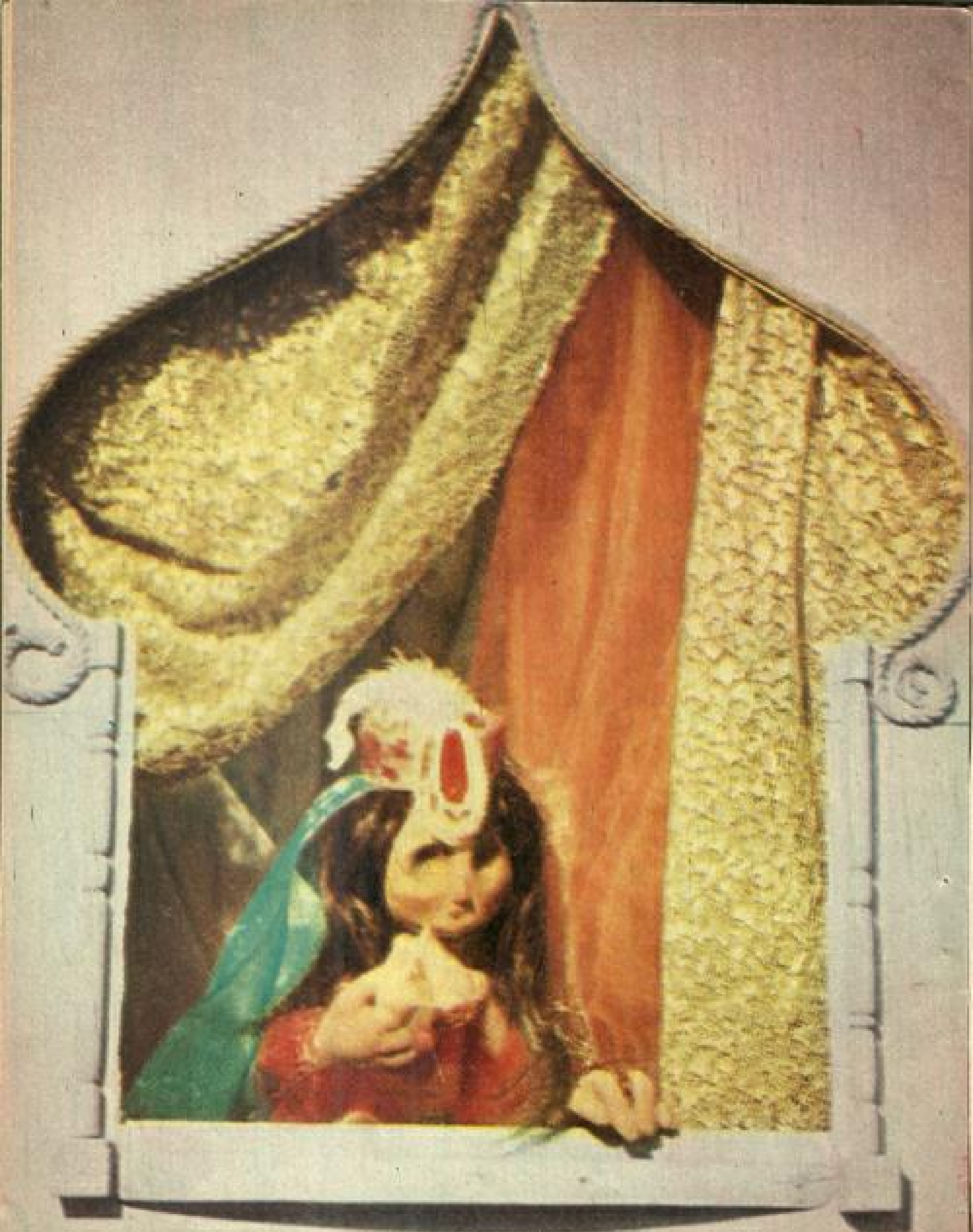
وسكتنا ..

قال الشيخ « ظاظا » :

* قبل هذه الحادثة بفترة من الزمن ، حدثت ضجة عظيمة فى

المدينة الكبيرة ، وهنا قاطعه الطفل الذى يجلس إلى جوارى هامسا فى خوف :
ـ وعدتنا أن تكمل الحدوتة حتى نفهم .. ماذا حدث بين « همام وزرزور » ؟ ..
لماذا تتحدث الآن عن المدينة ؟
وقبل أن يغضب الشيخ «طاطا» مرة أخرى .. همست أحذر الفتى :
ـ هل تريد أن تكون أقل ذكاء من «فكيهه» ؟!. اسكت ..
وسكت الفتى .. وعاد الشيخ «طاطا» يقول متجاهلا ماحدث :
ـ قبل حادث النباح الكبير بمدة .. حدثت ضجة عظيمة فى المدينة الكبيرة حيث يوجد قصر السلطان « برقوش » وقلعته الكبيرة ..
وشاهد أهل المدينة الرسل والمنادين ينطلقون من أبواب القلعة السبعة إلى كل الجهات ..
وتطلعت العيون إلى القلعة .. وخفقت القلوب وارتعشت خوفا .. لأن ماحدث لا يبشر بالخير ، وهذا يعنى أن الشر لن يقع إلا فوق رءوس أهل المدينة ..
ـ كان السلطان « برقوش » يصرخ فى القصر فيهتز ، ويأمر غاضبا وهو يدق الأرض ويهز جدران القصر .. فتسمع المدينة صرخاته الغاضبة فتغلق أبوابها .. ويتوقف الناس عن البيع والشراء .. وتغلق الدكاكين والحوانيت .. وتخلو الشوارع من المارة ، ويفضل الناس البقاء فى بيوتهم انتظارا لما تأتى به الساعات ..
وطال انتظار الناس وقلقهم .. ثم دقت الطبول .. ومضى المنادى يجوب شوارع المدينة وهو يقول:
الغائب يعلم الحاضر ..
منذ اليوم .. هناك أوامر ..
أن يحيا الناس .. جميع الناس ..
بالعدل وبالقسطاس ..
قال الناس : خيرا فعل السلطان ..
وخرجوا من بيوتهم مطمئنين إلى أشغالهم .. وفتحوا الدكاكين والمحلات .. ورفعوا أيديهم إلى السماء شاكرين .. يلعنون مافات .. ويدعون لسلطان السلاطين .
* ومضت عدة أيام .. وعادت الضجة العظيمة تهز المدينة الكبيرة ..
وشاهد أهل المدينة الرسل والمنادين ينطلقون مرة أخرى من أبواب القلعة السبعة إلى كل الجهات ..
وكان السلطان فى القصر يزعق ويصرخ .. وأغلقت المدينة أبوابها وتوقف الناس عن البيع والشراء وأغلقت الحوانيت والدكاكين ..





وخلت الشوارع من المارة .. وفضل الناس البقاء فى بيوتهم انتظارا لما تأتى به الساعات .. وطال انتظار الناس وقلقهم .. ثم دقت الطبول .. ودار المنادى فى الحوارى يقول :

سلطان السلاطين ..
يأمر الخلق أجمعين
أن يلبسوا الحرير ..
وأن يأكلوا الفطير ..
فلن يبقى بعد اليوم ..
رجل مسكين .. فى المدينة ..
أو طفل جائع ..
أو طفلة حزينة ..

قال الناس خيرا مايقوله المنادى .. ويأمر به السلطان .. لو كان بأيدينا .. أو لو كان سيعطينا ..

وخرجوا للأسواق .. وفتحوا الدكاكين ..

ودار رجال السلطان .. يوزعون الملابس الحريرية على الشحاذين .. ووقف طباخو السلطان على النواصى يوزعون اللحم السمين .. والخبز والفطير الكثير ..

ومع أن الجنود كانوا يوزعون الضرب والاهانة مع الملابس والطعام .. إلا أن الناس كانوا مسرورين ..

ونادى مناد يقول :

ــ إن على جميع الناس ــ صغارا وكبارا ــ أن يخرجوا إلى الشوارع مسرورين ضاحكين ، وأن تعلق الزينات فى الميادين والحارات .. وعلى القرداتية والبهلوانات أن يملأوا الشوارع بالألعاب والألغاز والمضحكات .. وتعجب الناس .. لأنهم ليسوا فى موسم عيد .. ولم يكن رمضان قد حان ..

* ثم عرف الجميع السر .. فبنت السلطان الأميرة الجميلة الصغيرة .. سوف تخرج فى موكب لترى المدينة وأهلها .. ولابد أن يكون الجميع فى أزهى صورة وأعظم مظهر ..

وقال الناس للناس :

ــ بنت السلطان حزينة .. يقولون إنها مريضة .. لاتعرف الضحك أو الابتسام .. عجيبة هذه القصة !؟

سأل طفل أمه .. وهو راكب فوق كتفها :

ــ هل الأميرة حزينة لأنها جائعة يا أمى .. ولا تجد لبنا !؟ ..



وقال رجل لجاره .. في همس :

ـ اذا كانت بنت السلطان حزينة .. يا قلب لا تحزن ..

وسأل طفل جده العجوز :

ـ لماذا لا تضحك بنت السلطان ؟ هل يضربها الفقيه في الكتاب لأنها لا تحضر له رغيف الصباح :

وصاحت طفلة :

ـ لو أحضرت لي بنت السلطان تاجها الذهبي لألبسه مرة واحدة في حياتي .. لأخذتها معي إلى الساحة لتلعب معنا أنا وأصدقائي.. ولضحكت طول اليوم ..

والحقيقة أن الأميرة الصغيرة لم تكن تضحك أبدا .. وكانت حزينة دائما ، ولا أحد يعرف



السبب .. ولا أحد يدرى متى بدأت هذه الحالة .. ولا كيف اكتشفت ... وإن كان الجميع قد أكدوا أنه مرض خطير ..

قلنا للشيخ « ظاظا » :

— هل تظن أن الأميرة كانت معقدة نفسيا ؟ ..

فضحك الشيخ « ظاظا » .. وقال :

— ومن أين أعرف أنا .. ولم ادرس فى المدارس الحديثة مثلكم .. هذا غير مهم .. دعونا منه .. فأسباب الحزن كانت كثيرة .. وكان لابد أن يصيب أحدها الأميرة .. لابد .. هذا شىء غير بعيد ..

نعود إلى موكب السلطان .. الذى كان الآن يخرج من البوابة .. وبجواره ابنته والحاشية والحراس فى أبهى زينتهم وقوتهم .. والرايات والأعلام ترتفع على البيوت .. والناس على الجانبين — كل الناس — يضحكون ويرقصون ويلوحون بأيديهم .. وقد علت هتافاتهم .. وكل واحد منهم يريد أن يظهر للسلطان أو للجنود المنتشرين بينهم أنه فى غاية السعادة ..



وكان السلطان يضحك ويشير للأميرة ويشرح لها .. ويريها الملابس الجديدة التي يرتديها الشعب .. ولكن الأميرة .. ظلت جامدة ساكنة .. وفي عينيها نظرة حزينة عميقة ..

كانت لا تنظر إلى أحد .. وفجأة تساقطت من عينيها الدموع ..

ولأن الناس كانوا يرقصون ويضحكون غصبا .. ولأنهم كانوا يلوحون بأذرعهم التي تحمل آثار الضرب بالسياط .. ولأن قلوبهم كانت مليئة بالخوف من الجند . لذلك لمحوا دموع الأميرة بمجرد أن لمعت فوق خديها .. وأكثر من ذلك .. لقد بكت طفلة صغيرة كانت محمولة على كتف أمها ..

وحاولت الأم أن تسكتها بسرعة قبل أن يقترب الجندي الذي نظر إليها غاضبا .. ولكن طفلا آخر بكى .. ثم تبعه ثالث .. فرابع .. وارتفع بكاء الأطفال .. وكف الناس عن الرقص



وضاع صوتهم فى بكاء الأطفال .. ولم يعد غير بكاء الأطفال والصمت يلفان الشوارع .

ووقف السلطان متعجبا والغضب يخنقه .. فلم يستطع الكلام .. ونظر إلى ابنته التى كانت لا تزال تبكى .. ووقف حصانه .. وظل لحظة لا يدرى ماذا يفعل .. وقد تحول العيد إلى جنازة .. ولف بحصانه وأمر بالعودة إلى القصر بسرعة ..

وما أن اختفى السلطان .. حتى كانت الساحات مملوءة بصيحات وأصوات من نوع آخر .. فقد أفاق الجنود .. وأدركوا ما حدث .. لم يكن قد أعطاهم أية أوامر .. وأن قادتهم لحقوا به .. فقد كانوا يعرفون ما يجب أن يفعلوه دائما فى مثل هذه الأحوال .. وارتفع صراخ الناس .. وجرى كل واحد يبحث لنفسه عن ملجأ ونجاة من سياط الجند وحرابهم .. الذين انطلقوا ينزعون عن الناس الملابس الجديدة ويضربونهم .. انتقاما لما حدث .. وانتظارا لأوامر السلطان ..

* وعاد السلطان إلى القصر .. وقد فشل فى إزالة حزن الأميرة أو شفائها ، لقد قالوا له :





ـ لابد أنها رأت من مظاهر البؤس والفقر ماجعلها حزينة .. وهي مازالت صغيرة ، وهذه الأشياء تؤثر فى قلبها الصغير .. فأطلعها على حال الناس وهم سعداء..

وعاقب السلطان مربية الأميرة وجواريها عقابا صارما وشديدا .. لأنها لابد خرجت معهم .. ولابد أنها ذهبت دون علمه إلى الأحياء القذرة من المدينة .. فانتقلت إليها عدوى مرض من الأمراض التى تعيش وتنتشر هناك ..

وحار الأطباء والحكماء فى مرض الأميرة واحتار المهرجون فى اختراع وسائل لإضحاكها ..

وقالت جارية لنفسها :

ـ لابد أن الأميرة حزينة لما حولها من نفاق وكذب .. جنود كالأصنام فى كل مكان ، وجوار كعرائس المولد .. ولا طفل يلعب معها أبدا ..

وقال خادم عجوز لزميل له يثق به :

ـ الحزن مرض يسود إذا ساد الظلم بين الناس .. لقد شاهدت ذلك طول حياتى فى كل مكان .. ولكن الغريب أن يصيب الحزن الأميرة وهى لم يظلمها أحد ولم تظلم أحدا بعد .. لابد أن لهذه الأميرة قلبا طيبا .. لايتفق مع الإمارة والسلطنة .

وقال رجل من رجال السلطان مجرب ولئيم :

ـ لاتخافوا إلى هذه الدرجة .. فسوف تشفى الأميرة .. إنه عارض تافه . ولا أهمية



له .. فسوف تضحك الأميرة غدا كثيرا مهما كانت أسباب حزنها الآن .. غدا تذوق حلاوة السلطة .. فتموت من الضحك ..

ولقد رتب السلطان «برقوش» حكاية الموكب هذه عله يرفه عن الأميرة .. ويريها صورة جميلة للشعب وللمدينة .. ولكن الأمر لم ينتج أثرا .. بل أصبح الأمر أشد سوءا ..

وأعلن السلطان أن من يستطيع أن يضحك الأميرة .. فسوف يصبح زوجها فى المستقبل .. وسيكون شريك السلطان ووريثه فى الملك ..

ولا أحد يعرف هل كان السلطان يعنى ما أعلنه حقا .. أم أنه لجأ إلى هذا الحل .. لأن كل الحواديت التى تتحدث عن مرض الأميرات .. تقول إن هذا ما يجب أن يحدث .. لا ندرى ..

المهم أن المنادين انطلقوا إلى أنحاء الدنيا الأربع .. يدقون الطبول .. ويقرأون الأوامر الجديدة .. ويعلنون فى نفس الوقت أن كل من يتقدم إلى المهمة ويفشل .. فإن سيف السياف القاطع .. سيتولى أمره . ليكون عبرة لغيره ..

ويوما بعد يوم .. عاد الناس إلى أعمالهم .. لأنه كان لابد أن ينشغلوا بأعمالهم .. ولأن الحياة تحتاج إلى ذلك العمل .. ولايمكن للكون أن يقف انتظارا لضحك الأميرة ..

عاد الفلاحون يزرعون الحقول!

وعاد الخبازون إلى قمحهم ودقيقهم .. يعجنون ويصنعون الخبز ..

وعاد النجارون والحدادون يصنعون الأدوات البسيطة ..

وعاد الجنود أيضا يجمعون الدراهم والغرامات ..

وعادت الأمهات يرضعن أطفالهن ويحكين لهم الحكايات عن السلاطين والأميرات ..

وكان أطفال المدينة والقرى .. يمضون أيامهم فى اللعب والعمل .. وأحيانا كانوا يتذكرون الحكاية .. ويتعجبون لأن بنت السلطان حزينة تبكى وعندها ملابس تسد عين الشمس .. وعندها من الطعام .. ما يكفى قرية كاملة فى اليوم الواحد ..!

وفى بعض الأحيان كان بعض الأطفال يحلمون وسط العمل .. كل منهم يتصور أنه يستطيع أن يجعل بنت السلطان تضحك .. ولكن سرعان ما كان يتذكر سيف السياف .. ويتذكر أن المماليك لايمكن أن يسمحوا لواحد مثله أن يصبح سلطانا حتى ولو أضحك بنت السلطان ألف مرة ..

ولكن كثيرا من المغامرين وحتى من المماليك .. طمعوا أن يتزوجوا الأميرة وأن يصبحوا ورثة للعرش ..



وفشلوا جميعا ..

ويوما بعد يوم .. زاد عدد الرءوس المعلقة على سور المدينة. ذلك السور الذى كانت الأميرة تراه أحيانا فى أحلامها . فتهب صارخة .. أكثر حزنا من اليوم السابق ..

واشتغل السلطان أحيانا كثيرة بمرض ابنته .. فلم يعد يتفنن فى اختراع وسائل جديدة لنهب الناس . ونسى حكاية الشوارب .. وضرائب شروق الشمس وغروبها .. ومارس الناس حرية تربية الشوارب وحلقها دون خوف ..

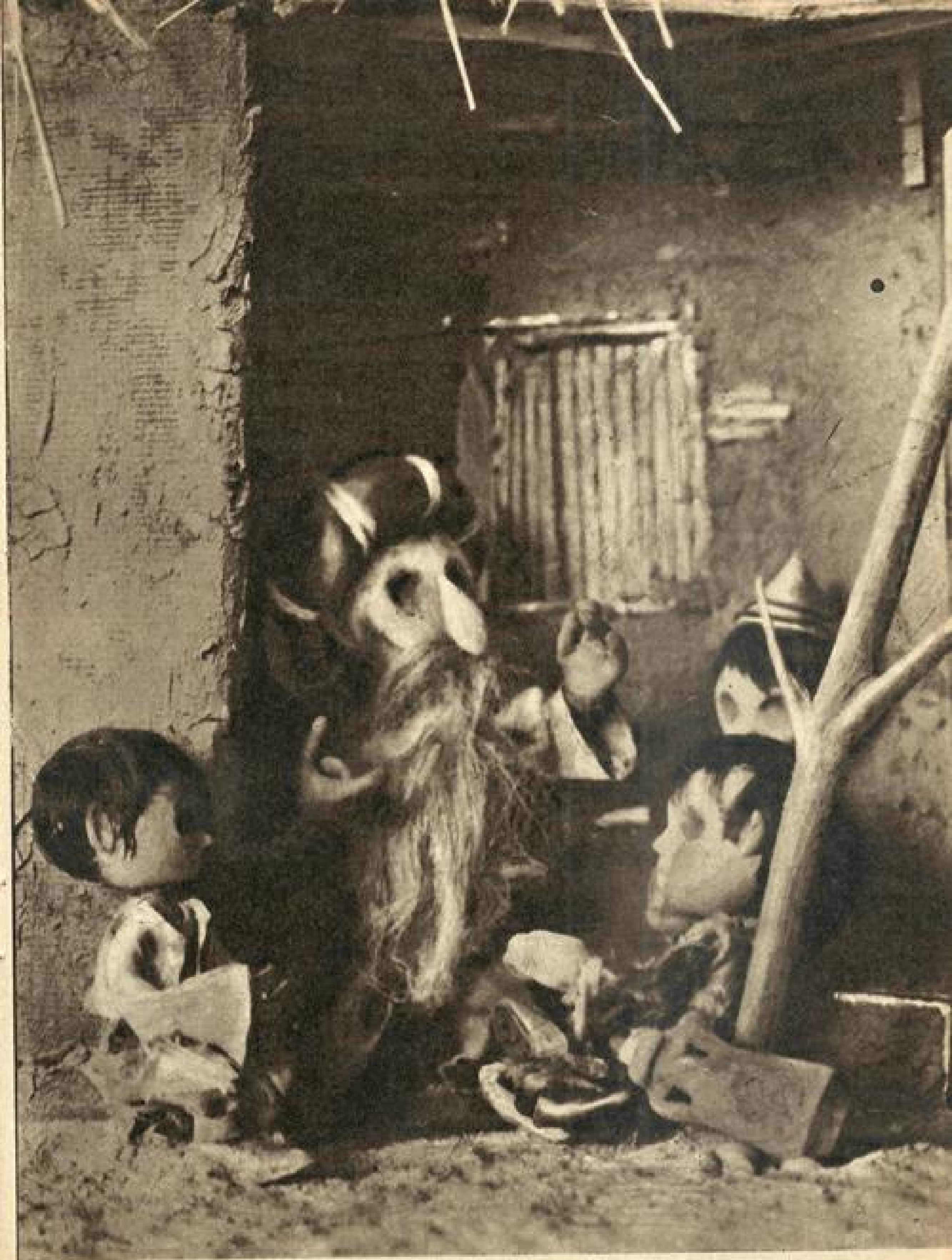
ولكن عندما قل عدد من يتقدمون لاضحاك الأميرة خوفا من الفشل .. فرض السلطان غرامة باهظة وعقابا بدنيا على كل من لايتقدم إلى إضحاك الأميرة ..

واحتار الناس .. هل يحزنون مع الأميرة أو يفرحون لحزنها ..

وذات ليلة ..

هب « الداودار شبار » من نومه صائحا .. يرقص ويقفز هنا وهناك .. وهو يأمر بإحضار ملابسه ليرتديها .. واستيقظ أهل القصر جميعا على صياحه





ورقصه وغنائه .. وهم فى دهشة .. يظنون أن سيدهم قد جن ..

ولكن «الداودار» كان سعيدا يكاد يطير من الفرح .. فلقد اكتشف أنه هو وحده الذى عنده دواء الأميرة وشفاؤها .. ولما أخبر زوجته بما اعتزمه .. ركعت على الأرض ترجوه ألا يفكر فى هذه الأمور وأن يبتعد عن السلطان وسيف السلطان ..

ولكن «الداودار» لم يلتفت إليها .. فقد كان متأكدا مما يفكر فيه .. لقد تذكر ذلك الطفل «همام» الذى يصنع اللعب لأطفال إحدى القرى التى يملكها هناك على شاطىء البحيرة .. إنه يصنع أشياء تسعد وتفرح كل أطفال القرية رغم مايلاقونه من شقاء وفقر .. ورغم مايفعله «الداودار» نفسه بأهليهم ..

ألا يستطيع أن يضحك الأميرة؟ لابد أنه يستطيع ..

وأخذ «الداودار» يلوم نفسه لأنه لم يفكر فى هذا الأمر .. منذ البداية .. على العموم هناك وقت لإحضاره فيضحك الأميرة .. ويستولى «الداودار» على الجائزة .. فهو من المماليك ، أما



« همام » .. فيكفيه بعض المال..أو ضربة سيف واحدة .. إذا رفض ..

وحاولت زوجة « الداودار » أن ترجعه عن عزمه .. ولكنه انطلق فى جماعة من فرسانه إلى السلطان فأيقظه من نومه ، مما غاظ السلطان كثيرا .. ولكنه كتم غيظه حين سمع مايبشره به « الداودار » .. وإن كان قد حذره تحذيرا شديدا أنه فى حالة الفشل .. لن ينسى له أنه أيقظه من نوم لذيذ ..

وبكت زوجة « الداودار » .. لأول مرة منذ زمن بعيد .. وهى ترى زوجها يتجه مسرعا مع جنوده إلى باب المدينة الشمالى..قاصدين تلك القرية .. الصغيرة على شاطىء البحيرة البعيدة ..

قال الشيخ «ططا» :

ــ سنترك الجنود وعلى رأسهم « الداودار شبار » .. فى طريقهم الى قريتنا .. فأمامهم طريق طويل. ولنعد نحن إلى ماذا ؟ .

قلنا فى اشتياق : إلى الحكاية الأصلية :

ــ نعود إلى « همام » طبعا وإلى الشيخ والحمارة ! ..

ــ نريد أن نعرف كيف كان « همام » يعرف الشيخ قبل أن يراه ؟! ..

قال الشيخ « ططا » :

ــ عقولكم خشب .. أى والله «همام» فتى لم يشاهد أى مكان فى الدنيا . ولم يغادر القرية .. نعم ! ولكنه يحن إلى الجزائر الخضر البعيدة ، ويحلم بالسفر وبالوديان المسحورة والبحار وبالناس .. « وزرزور » وحمارته ..يسافران دائما بحثا عن قرية الشيخ المفقودة ، وشاهدا العجائب المائة وركبا البحر وعبرا الصحارى .. وقرأ الشيخ حواديت الناس وسمعها .. ورأى مالم يره إنسان .. فليس عجيبا أن يحلم «همام» بالشيخ .. لقد كان يراهما فى أحلامه .. هل فهمتم ؟!

وفكرنا .. لم يكن يهمنا الفهم أو عدم الفهم .. وإن كنا نريد أن نعرف بقية الحكاية ! لذلك قلنا جميعا سواء من فهم منا غرض الشيخ أو من لم يفهم :

ــ نعم لقد فهمنا ياشيخ ..أكمل . أكمل . ماذا فعل «همام» ؟ وماذا فعلت « فكيهة » ؟

قال الشيخ « ططا » :

ــ لا شىء ..

فأصابتنا خيبة أمل .. وظننا أن الشيخ غاضب ..

ــ لا شىء ؟ . كيف ؟. ولماذا أتيا إذن وسافرا كل هذه المسافات ؟!..

قال الشيخ « ططا » :







ـ لم يفعلا سوى مايفعلانه بأى قرية يدخلانها .

ـ وماذا يفعلان بأى قرية يدخلانها ؟

قال الشيخ «ظاظا» :

ـ تقول الحكايات إن الشيخ« زرزور » إنما يسافر بحثا عن قريته .. التى فقدها منذ أن كان صبيا .. ومنذ أن كانت حمارته هذه مجرد جحشة لاتعرف شيئا عن الدنيا ..

فقد الشيخ «زرزور» قريته.. وهو يبحث عنها فى كل مكان .. ولا يريد أن يعيش فى غيرها .. فهى قرية مختلفة عن كل القرى التى يعرفها الناس ..

الشيخ «زرزور» يقول للناس فى كل مكان .. ويحكى لهم أن قريته كانت لا تعرف الظلم أو الخوف .. ولا يعرف أهلها الجوع أو الحزن ..

طبعا .. كان الناس يضحكون من كلامه هذا .. فهم لا يمكن أن يصدقوا أن هناك قرية بهذا الشكل فى العالم ..







ولكن الشيخ «زرزور» يقسم أن قريته كذلك .. وأنه لولا صغر سنه زمان وضعفه الآن .. لعاد إليها منذ زمن ولوجدها بسهولة.. ولكنه نسى الطريق .

ولم يكن أحد يصدق حكاية الشيخ «زرزور» وقريته المفقودة سوى الأطفال .. ولم يكن يؤمن به غيرهم وغير الحمارة «فكيهة».. وحتى الحمارة «فكيهة» كانت تيأس فى أحيان كثيرة .. وتمل من حديث الشيخ الذى لا ينتهى عن تلك القرية ، ولكنها تظل تحلم بالعودة إليها .. حيث لا ظلم ولا جوع ولا خوف .. وحيث لا تشتغل الحمير هناك طوال اليوم .. وحيث لا يعتبر اسم الحمار لعنة تطارد بنى جنسها .. والضعفاء من بنى البشر ..

الأطفال فقط كانوا يصدقون « زرزور » تماما .. بل وكان الكثيرون منهم يريدون لو رحلوا معه بحثا عن قريته المفقودة ..

ولذلك كان «زرزور» يجد نفسه مع الأطفال .. فيستعيد قوته .. ويعود إلى الدروب يبحث من





جديد .. ويحلم باليوم الذى يستطيع فيه أن يهدى قريته السعيدة إلى كل الأطفال فى كل القرى .

قال الشيخ « ظاظا » :

وماكان يحدث فى كل القرى .. حدث كذلك فى قريتنا ..

وكان دكان « همام » هو مكانهم المفضل.. حيث يجلس الشيخ وحوله كل الأطفال بل وبعض الأمهات .. يستمعون إلى حكاياته

ومضت الأيام الثلاثة وهم على هذه الحال

أصبح الجميع خلالها أصدقاء .. وكان « همام » أكثر الأطفال تأثرا .. فلقد أحس أنه يرتبط بهذا الشيخ برباط خفى . وأن قرية الشيخ لابد أن تكون هى قريته التى يحلم بها .. أو التى جاء منها هو الآخر .. والا فلماذا أحس أنه يعرف الشيخ منذ زمن بعيد ؟ ولماذا كان يحلم به وبحمارته فى أحيان كثيرة ..

كان الشيخ يحكى عن الأهوال التى قابلها فى الطريق .. والعجائب التى شاهدها ، والحكم والحكايات التى سمعها .. وكانت « فكيهة » تحكى الكثير عن أحوال الناس وأخبار الحيوانات ..

وفجأة قرر « همام » أن يرحل مع الشيخ بأى ثمن .. لم يخبر أحـدا بقراره ولكنه صمم عليه .. وما أن استقر على هذا الرأى حتى أحس أن العالم يفتح له قلبه .. وأنه يستطيع أن يحتضن الدنيا .. وأنه سيجد بالتأكيد تلك القـرية لأن الشيخ فى حاجة

إليه وهو فى هذه السن ..

ومضت الأيام الثلاثة .. التى تستغرقها رحلة الخيل من المدينة إلى قريتنا ..

وكان الشيخ « زرزور » وحمارته فى الدكان وبعض الأطفال حولهما ..

وفجأة أقبل طفل من طرف القرية الآخر يجرى صارخا :

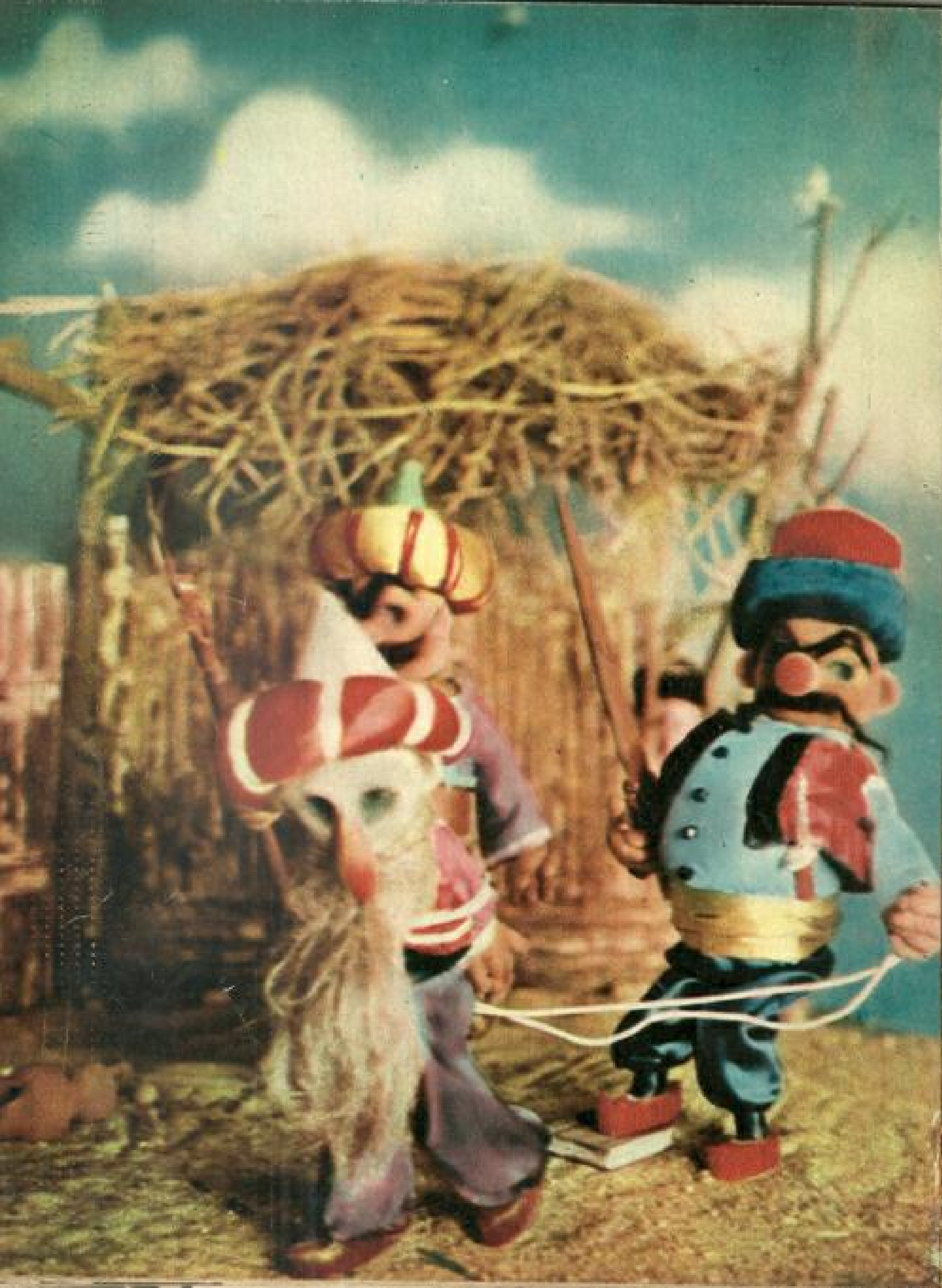
ــ ليهرب كل الأطفال .. « الداودار شبار » وجنوده هجموا على القرية .. وهم يطلبون الأطفال ..

وامتلأ الجو بالصراخ .. وببكاء الأمهات .. كانت كل أم تبحث عن طفلها لتحميه ، وظل « همام » فى مكانه لا يدرى ماذا يفعل .. فهذا ليس ميعاد رجال « الداودار » .. لم يعد الرجال بعد من البحيرة .. لماذا جاءوا هذه المرة مبكرين ؟ وأحس بخوف غامض يملأ قلبه .. وتأكد خوفه عندما جاء طفل آخر ..

ــ همام .. اهرب يا « همام » .. « الداودار » جاء خصيصا لأخذك أنت .. إنه يبحث عنك فى كل مكان .. اهرب .. بسرعة ..

قال « همام » للشيخ :





ـ أنا لا أحب هذا الرجل .. وأخاف عليك أنت و «فكيهة» ..
تعال معى .. أعرف مكانا يمكن أن تختفى فيه .. هناك بين الملاحات .. مكان لا يعرفه أحد ..
ولكن الشيخ قال :
ـ اسرع بالهرب أنت .. إن كان يريدك .. سنكون سببا فى تأخيرك، فأنا عجوز ثقيل الحركة .. ولن يلتفت « الداودار » إلى .. سأبقى هنا .. لكى أعطله ارحل أنت بسرعة ..
وقفز قلب «همام» بين ضلوعه خوفا أن يعود فلا يجد الشيخ .. فصاح وهو ينطلق إلى الأدغال :
ـ انتظرانى .. لا ترحلا بدونى .. سوف أصحبك ياشيخ وستجد القرية .. لا تذهب قبل أن أعود ..
وكانت أصوات حوافر الخيل وصيحات الاستغاثة والغضب والضرب تقترب ..
وهمست « فكيهة » فى حزن عندما اختفى « همام » بين أدغال البردى :
ـ الوداع ياصديقى ..
ووجدت دموعها تسيل ..





فمسحتها فى خجل بينما ربت الشيخ على رأسها .

فقالت :

لست أدرى لماذا أحببت هذا الصبى كل هذا الحب ؟! ..

قال الشيخ « طاطا » :

غضب « الداودار » غضبا شديدا عندما لم يعثر لـ «همام» على أثر .. وفى الحقيقة كان خوفه أكبر من غضبه .. لأن السلطان أعطاه مهلة سبعة أيام لكى يعود ومعه علاج الأميرة .. ولذلك كان خائفا .. لم يكن قد توقع أى مصاعب .. كان يظن أنه سيعود فورا بـ « همام » ، دون أى مشقة سواء رضى « همام » أم لم يرض .. أما الآن فماذا يفعل .. وليس أمامه سوى يوم واحد ..

لا أحد يريد أن يدله على مكان « همام » .

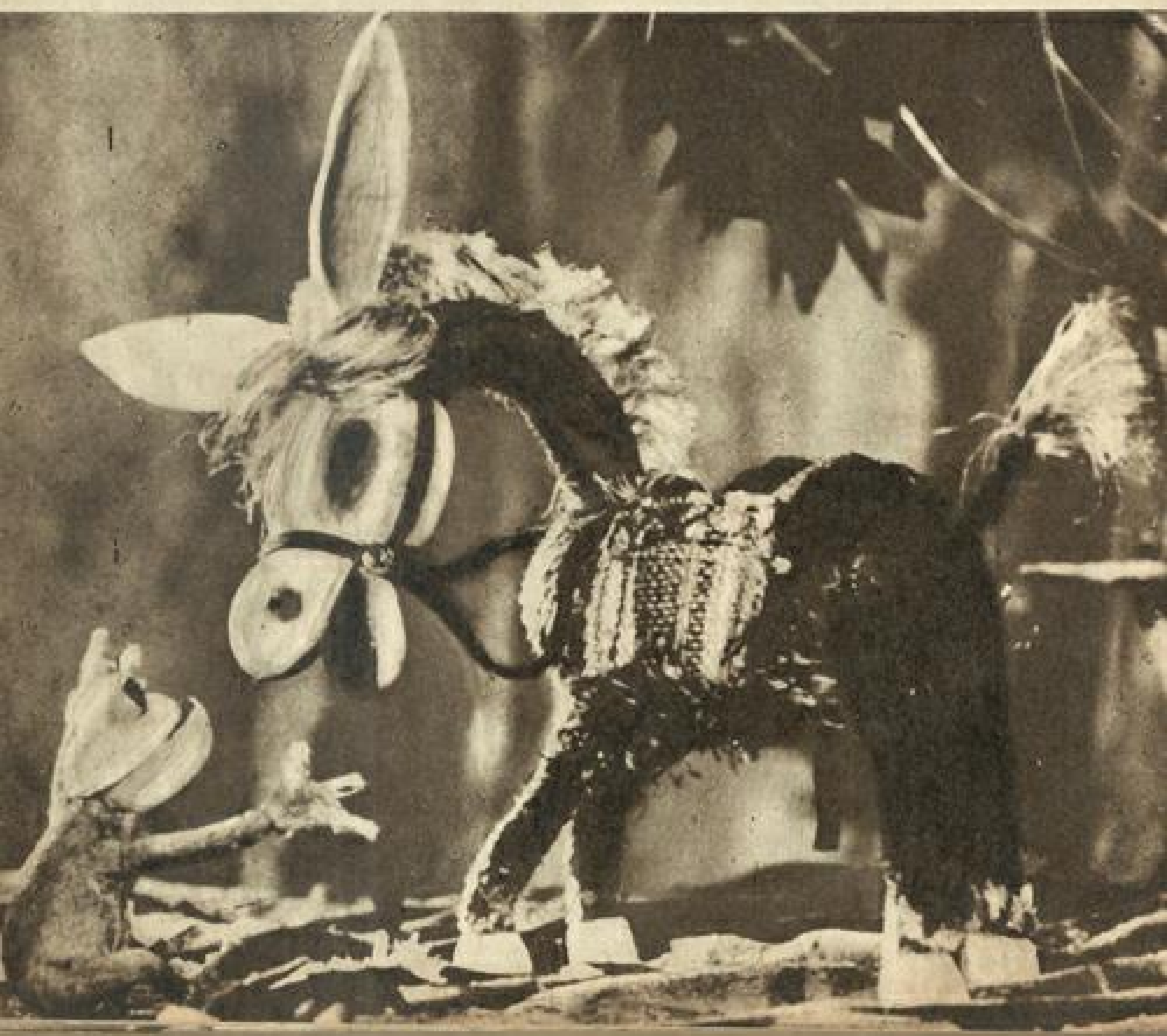
وهذا الشيخ العجوز الغريب .. ماذا يفعل فى هذه القرية .. التى لم يدخلها غريب منذ أن أصبحت من أملاكه .. لابد أنه يعرف سر اختفاء «همام».. وقد يكون هو الذى أخفاه .. ولذلك فقد أمر بالقبض عليه .وانزعجت الحمارة «فكيهة» فأخذت تصرخ



وتضرب الجنود وتسبهم..عندمارأتهم يقبضون على « زرزور » ويعذبونه .. ولكنهم أبعدوها عن طريقهم بعد أن أشبعوهاضربا وأشبعتهم هى عضا ورفسا ..واختبأ الأطفال فى صدور أمهاتهم .. واختبأت الأمهات فى جوف منازلهن .. ولم يعد فى الشوارع سوى الجند .. وصراخ الحمارة « فكيهة » التىلاتستطيع أنتصل إلى مكان « الداودار ؟ ..حيث أخذ الجنود « زرزور » ليسألوه عن مكان « همام » ..

ولكن « زرزور » لم يخبر« الداودار » بشىء ..

كانت الساعات تمر بسرعة ..والوقت يمضى .. وخوف« الداودار » يزداد .. عليه أن يعود ولكن ماذاسيقول للسلطان؟







ولذلك قرر أن يأخذ معه « زرزور » مقبوضا عليه ليقدمه إلى السلطان على أنه السبب فى فشل مهمته ، فقد ينال العقاب الذى سينزله به السلطان بدلا منه .. وارتاح قليلا لهذه الفكرة .. سيفتدى نفسه بالشيخ العجوز وسيقدمه للسلطان ليصب عليه غضبه .. لم يكن متأكدا من نجاح ذلك .. ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل غير ذلك .. وقيد « زرزور » جيدا حتى لا يفلت.

وظل الجنود يفتشون كل ركن فى القرية وما حولها .. لعلهم يجدون شيئا يدل على مكان «همام». إلى أن يحين وقت رحيلهم مع الصباح..

وكادت «فكيهة» تجن عندما علمت بما قرره « الداودار » .. وصممت على أخبار « همام » بما حدث .. لعله يجد طريقة لانقاذ « زرزور » ..

وتسللت «فكيهة» دون أن يراها أحد .. واختفت فى أدغال البوص والبردى .. حيث اختفى «همام» من قبل ..

لم تكن « فكيهة » تعرف كيف ستصل إليه .. ولا أين مكانه ولكن انشغالها بما ينتظر «زرزور» وقلقها عليه .. جعلها تمضى وهى متأكدة من الوصول الى «همام» بطريقة ما ..

وأخذت تتخبط فى الظلام وهى تلعن الطريق الذى قادها إلى هذه الأدغال .. التى لا يعرف الطريق خلالها إلا من عاش بها . كانت الأرض رطبة زلقة ومشبعة بالماء والرطوبة بدرجة كانت تغوص فيها إلى ركبتها وكان القمر غائبا . وفراشات مجهولة تصطدم بوجهها .. فيخيل إليها أن المكان مملوء بالأرواح والمخلوقات الخفية .. كانت تهمهم فى غضب .. وتتمتم ببضع كلمات قلقة عن « زرزور » وما ينتظره .. عندما قفزت أمامها ضفدعة كبيرة خضراء..اعترضت الطريق فى تحد وعيناها الجاحظتان تبرقان فى الظلام .. فتوقفت الحمارة خائفة .. وظل المخلوقان ساكتين حتى قالت الضفدعة فى صوت أجش ..

— إلى أين تظنين أنك ذاهبة أيتها الحمارة الحمقاء ؟! ليس هنا مكان للحمير ... عودى من حيث أتيت ..

لو أن أحدا وجه الحديث إلى «فكيهة» بهذه الطريقة قبل الآن.. لما خرج من المناقشة سليما .. حتى ولو كان « الداودار » نفسه .. ولكن «فكيهة» كان يشغلها أمر أخطر من الدفاع عن كرامة الحمير .. فقالت فى صوت ضعيف :

ــ إننى أبحث .. عن فتى .. فتى اسمه « همام » .. هل تعرفين الطريق إليه يا ملكة الضفادع ؟!

وضحكت الضفدعة ضحكة عالية ساخرة .. وهى تقفز وتنط فرحة لأنها جعلت هذا الحيوان الضخم يكلمها بهذه الطريقة الشديدة التأدب ..

فقالت :

ــ ليس للضفادع ملكة .. يا ذات الأسنان الكبيرة .

قالت « فكيهة » :

ــ لولا أننى مشغولة جدا .. لقضيت الليل معك هنا نتبادل الشتائم الودية .. ولكن إذا لم تكونى تعرفين الطريق إلى «همام».. فلا تضيعى وقتى .. وإلا فسوف أستعمل حوافرى . وقبل أن تتحرك « فكيهة » قالت الضفدعة :

ــ وهل تظنين أنك ستذهبين هكذا إلى « همام » بسهولة .. ها .. هل جئت لتدلى الجنود على مكانه ؟ .. هل أنت من رجال ذلك الرجل المجنون « شبار » ؟!

فصرخت الحمارة غاضبة :

ــ وهل ترين فى شكلى ما يجعلك تتهميننى بذلك ؟! لا .. إننى صديقة لـ « همام » ..

ــ وماذا يثبت لى .. ؟! وكيف أتأكد من كلامك ؟

ــ لا تضيعى الوقت.. فالوقت ضيق .. وقد قبضوا على الشيخ الطيب «زرزور» صديق «همام» وسيدى .. وإذا لم تكونى تعرفين الطريق إلى «همام» فلا تعطلينى .

وإن كنت تعرفينه فقودينى إليه على الفور .. وسوف ترين أننا أصدقاء .. وإلا .. فاذهبى أنت وأخبريه أن « فكيهة » تنتظره .. وسوف أبقى هنا حتى تأتينى به ..

فضحكت الضفدعة مرة أخرى ضحكتها الساخرة قائلة :

ــ أنا أعرف أنك صديقته ..وكنت أقف هنا أنتظر من يخبرنا بأخبار القرية ..

فصرخت « فكيهة » وكادت تضربها غاضبة ..

ــ عليك اللعنة .. لماذا إذن تضيعين هذا الوقت .. هيا بنا بسرعة .. فالفجر أوشك على البزوغ ..

وتقدمتها الضفدعة ، وهى تقفز فى خفة بين أوراق البردى وأعواده الكثيفة، وتبعتها الحمارة بصعوبة ..

كانت حوافرها تغوص فى الطين.. وكادت تقع فى المستنقع أكثر من مرة .. ومرتا فى طريقهما





على فأر غيط كبير .. يتأمل النجوم .. وأزعجه منظر الحمارة كثيرا فصاح بالضفدعة :

ــ لا تأمنى لهذه الحيوانات البليدة الضخمة يا عزيزتى .. فإن معاشرتها للبشر قد أفسدتها ..

« ولكن «فكيهة» ردت عليه فى أدب :

ــ ليس كل البشر فاسدين ياسيدى الحكم .. كما أنه من المؤكد .. أن الفئران الطيبة لا تعامل ضيوفها هكذا ...

وضحكت الضفدعة ضحكة عالية وسرت من رد الحمارة .. فاغتاظ الفأر وقال :

ــ لا تأتون الينا من القرى الا بكل .. (غلبارى)طويل اللسان

فقالت له الضفدعة :

ــ لاتهتم .. وارجع إلى عملك .. فلابد أنك نسيت عددالنجوم التى أحصيتها ..

ولم ترد «فكيهة» .. فقد كانت تسير على شريط ضيق من الأرض الصلبة .. لا تستطيع معه أن تلتفت إلى الفأر لتكلمه.

وأخيرا وصلتا إلى حافة المستنقع .. حيث تمتد سهول





واسعة وخلاء عريض تفرشه أزهار النرجس ..

وهنا صاحت الضفدعة بطريقة معينة بوضع يديها حول فمها .. فخرج إليها ثلاثة أرانب بيضاء مسلحة .. بالحراب ..

وبعد أن همست إليها ببضع كلمات .. قفزت عائدة وهي تقول للحمارة :

ــ يؤسفني أنني لن أتمتع بصحبتك أكثر من ذلك .. فنفوذي لا يمتد إلى أبعد من هذا .. وسيوصلك هؤلاء الأصدقاء إلى حيث ترغبين فإلى اللقاء ..

واختفت .. دون أن تنتظر جوابا ..

تقدم أحد الأرانب وقاد «فكيهة» من لجامها .. بينما قفز الآخر وامتطاها .. وتبعهم الثالث شاهرا سيفه القصير ..

ولم تسألهم «فكيهة» إلى أين سيذهبون بها .. فقد كانت لا تعرف لغة هذا النوع من الأرانب .. ولذلك سلمت لهم زمامها .. ومضى الموكب صامتا .. وسط الأزهار حتى وصلوا إلى تل صغير ..وفجأة اختفت



الأرانب الثلاثة .. دون كلمة .

وبقيت «فكيهة» فى الظلام .. لا تدرى ماذا تفعل .. وندمت لأنها تبعتهم هكذا دون تفكير .. وأخذت تفكر فى ذلك المقبوض عليه هناك .. وأحست بتأنيب الضمير لأنها تركته ، وقبل أن تقرر العودة من حيث أتت .. سمعت صوتا حبيبا تعرفه جيدا ..

كان « همام » أمامها وحوله الأرانب الثلاثة .. واندفع «همام» إليها . واندفعت هى تأخذه فى أحضانها .. !

ولم تستطع « فكيهة » أن تمنع نفسها من البكاء .. عندما سألها عن القرية وعما حدث بعد رحيله ..

وقالت «فكيهة» ردا على سؤال « همام » :

ـ لقد قبضوا على «زرزور» .. «الداودار» يتهمه باختفائك .. « الداودار » هذا قاس جدا ..



لم يرحم شيخوخته .. إنه يقول إنه جاء ليأخذك إلى السلطان . يريدك أن تضحك ابنة السلطان المريضة بداء عدم الضحك .. وداء الحزن ..

ــ داء عدم الضحك ؟! . ومادخلي أنا ؟ هل سأعمل مهرجا لأضحك السلطان ؟!! ..

ــ جاء «الداودار» يريدك أن تضحكها كما تضحك أطفال القرية وتسعدهم ..

ــ ولكن .. هذا أمر مختلف .. أنا أصنع لعبا بسيطة تضحك أطفال القرية .. نعم .. لأنهم بائسون لا يعرفون غيرها .. إنها الشيء الجميل الوحيد في حياتهم .. أما بنت السلطان فماذا أفعل لها .. يستطيع أمير أن يضحكها .. أما أنا .. فلا أستطيع .. ولكن .. مادخل « زرزور » .. لماذا يقبضون عليه ؟ ..

ــ « الداودار » مصمم على أخذك لتضحك الأميرة .. وهو يعتقد أن « زرزور » هو الذي يخفيك .. وسيأخذه للسلطان .. بدلا منك ..

فضحك « همام » في سخرية:

ــ ولكن .. هل سيضحك «زرزور» بنت السلطان .. هل ؟! ولكن ..

إنه ..؟ ها .. ها .. اللعنة عليك يا « شبار » .. إنه سيقتله دون شك ..

وأحس بخطورة الأمر .. فكاد يصرخ :

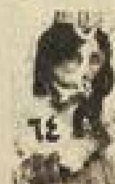
ــ « فكيهة » إن «زرزور» في خطر حقيقي .. فالسلطان «برقوش» .. يقتل بنفس السهولة التي يأكل بها .. و « الداودار » نفسه يجب أن يتشبه به .. لابد من إنقاذ «زرزور» .. لابد حتى ولو اشتغلت مهرجا لأضحك بنت السلطان ..

هيا يا «فكيهة» .. يجب ألا نضيع وقتا أكثر من ذلك ..

وقفز « همام » راكبا «فكيهة» وانطلق يقودها في طريق يعرفه .

كانت الشمس على وشك البزوغ .. ولونت أشعتها السماء بلون ذهبي .. وتنهد « همام » .. وهو يرقب تلك السهول الحبيبة التي تغطيها أزهار النرجس .. وأحس بقلبه يكاد يقتله الحنين .. عندما غمره إحساس بأنه سيغادر هذا المكان وقد لا يراه بعد الآن .. كاد « همام » يبكي للفكرة الطائشة التي طرأت له دون سبب معروف .. وأحس أنه لم يحب هذه القرية في يوم من الأيام .. مثلما أحبها اليوم .. هو الذي كان يحلم دائما بالأماكن البعيدة المجهولة ..

كان «همام» مشغولا بأفكاره .. وكانت «فكيهة» قلقة تتعذب لأنها تركت « زرزور » في قبضة «الداودار» .. وتعجب كيف يمكن أن يجد إنسان القدرة على تعذيب وإيذاء شيخ طيب مثل هذا الشيخ .. الذي لا هم له سوى إسعاد الناس والأطفال .. ومدهم بالأمل في العثور يوما على قريته تلك





التي لم يرها .. والتي يعيش فيها الجميع بلا خوف .. وبلاأحزان..

وكانت الشمس قد طلعت .. ودبت الحياة الخفية في البراري

.. ولكن القرية ظلت صامتة كأنه لا يوجد بها أحد .. لاصوت ولا حركة .. والأبواب مغلقة والسكون يلف كل شيء ..

وارتجف قلب « فكيهة » ..

أين الجنود ..؟ أين الناس ؟أين الشيخ « زرزور » الحبيب؟!

وامتدت كف حديدية تعصر قلب « همام » وتملؤه بالحزن .. . وبالقلق ..

لابد أن شيئا فظيعا قد حدث.. فأصوات بكاء كثيرة تصله من خلف الأبواب المغلقة .. رفع « همام » صوته ونادى .. فخرج إليه طفل صديق يتلفت حوله . وأخبره .. وأخبره أن« الداودار» رحل هو وجنوده فجر اليوم .. وقد صحبوا معهم الشيخ « زرزور » ... مكبلا بالأغلال .

قبل أن يقول الشيخ « ظاظا »شيئا .. هذه المرة .. قلنا له جميعا :

ــ لقد ملأت حكايتك هذه بالبكاء .. الأطفال يبكون .. الناس في المدينة يبكون .. الصيادون يبكون عندما يعودون .. لماذا كل هذا البكاء.. هل يبكي الجميع لأن بنت السلطان حزينة لا تضحك ..

وانفجر الشيخ «ظاظا» يضحك حتى خفنا أن يخنقه الضحك ،وأسرع بعضنا يحضر إليه بعض الماء ..

وعندما كف عن الضحك قال:

ــ ياسلام .. الدنيا كلها تبكي لأن بنت السلطان حزينة !!

قلت لكم قبل الآن مرة .. إن عقولكم خشب ..

الأطفال يبكون لأسباب كثيرة.. وأهل المدينة يبكون لأسباب أخرى أيضا .. كل فرد منهم عنده من الهموم ما يكفيه .. الناس يا أبناء (المدارس) يبكون لأسباب أعمق من حزن بنت السلطان أو عدم ضحكها .. صحيح أن مرضها سبب للناس كثيرا من الحزن .. كما رأينا .. وكثيرا من المصائب .. ولكن هي نفسها لا تعرف ذلك .. لقد سألت « فكيهة » «همام» سؤالا في الطريق .. وكان جواب «همام» حكيما .. لقد قال « همام » ردا على سؤال « فكيهة » :

ــ بنت السلطان لا تضحك .. وماذا في ذلك .. ليس هذا مرضا .. إنها مازالت صغيرة .. ولكنهم يصنعون منها ملكة منذ الآن .. قد يكون حزنها لأنها لا تلعب مع أطفال آخرين .. أو لأنها ــ كما





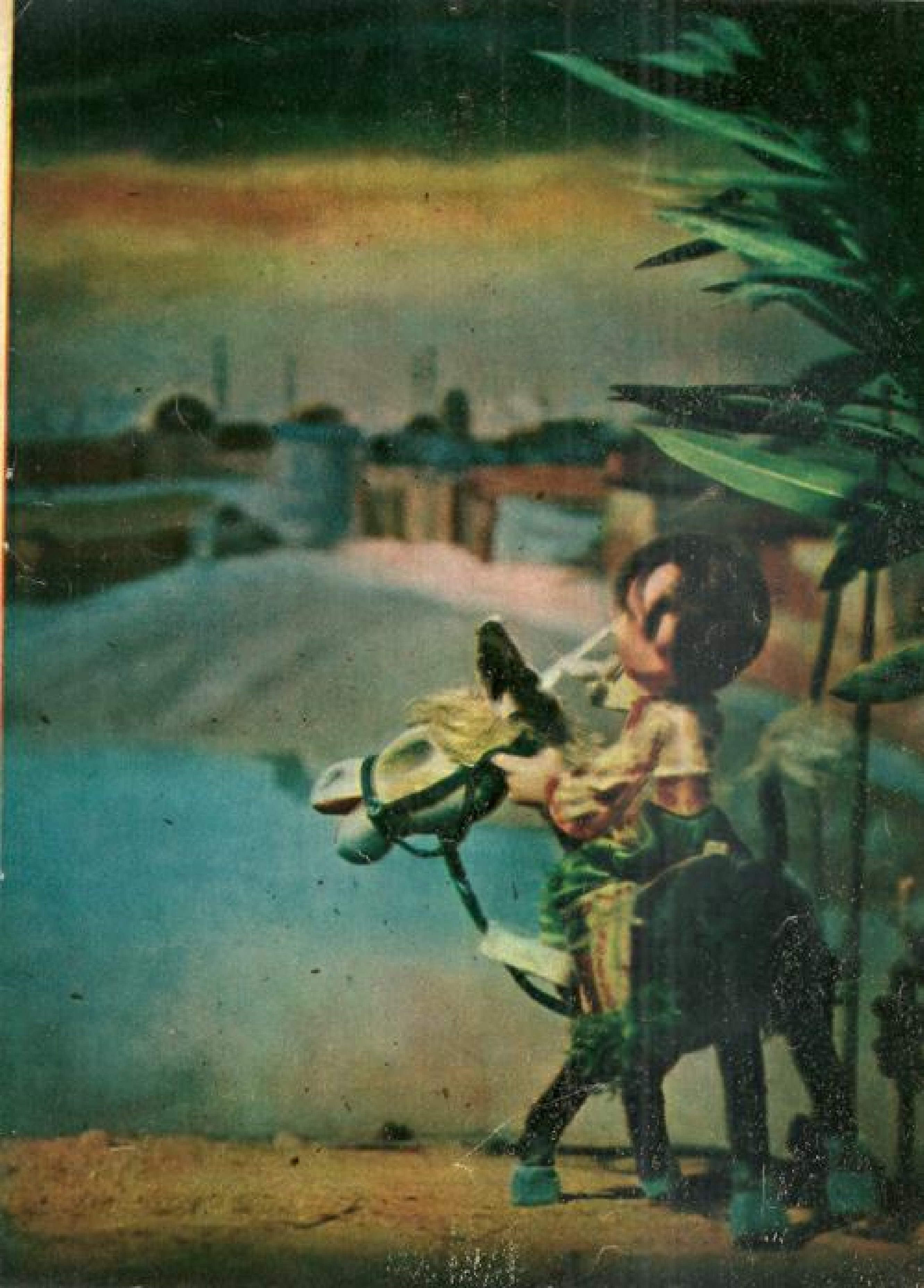
يقولون شاهدت الكثير من الظلم .. ولكنى متأكد .. أنها عندما تكبر ستنسى حزنها هذا .. وستضحك كثيرا مثل والدها .. وهى نفسها .. ستفعل مثله .. هكذا الحال .. يا « فكيهة » .. أنا أعرف أن الأطفال الذين أعرفهم .. يضحكون .. أصنع لهم لعبا بسيطة فيفرحون بها .. ولكننى أعرف أيضا أنهم سيبكون غدا كثيرا عندما يكبرون .. سيقع عليهم الكثير من ظلم السلطان و « الداودار » وغيرهما ..

أفهمتم الآن ؟ ..

هذا ماقاله « همام » منذ مئات الأعوام ..

وتقولون أنتم يا أبناء المدارس .. هل الدنيا تبكى لأن بنت السلطان حزينة .. ثم تلومونى لأن حكايتى مليئة بالحزن .. لأن بنت السلطان لا تضحك .. ها .. ها .. إنكم تضحكوننى .. وللأسف .. لن أكمل الحكاية مادمتم تفهمون الأمور هكذا .. سلام عليكم ..

وأصابنا هم شديد .. وغم .. وأمسك كل منا بطرف من جلباب عم الشيخ « ظاظا » ..





وبكى طفل صغير وهو يقول:
ـ يا عم الشيخ «طاظا» ..هل تتركنا هكذا .. هل تترك أطفال القرية يبكون .. وتترك «همام» حزينا .. و «زرزور» فى الأغلال .. تحت رحمة «الداودار» ..هل تريدنا أن نبكى نحن الآخرين .. هل تحكى لنا حكاياتك لتبكينا .. وأنت الرجل الطيب القلب ..

قال الشيخ « طاظا » :
وماذا تريدون منى أن أفعل؟!
لو كان الأمر بيدى .. لكنت أخذت « زرزور » من يده حتى قريته المجهولة .. وكنت حملت «همام» على كتفى ودرت به أريه الجزائر البعيدة والجبال والوديان والغابات .. والناس .. وكنت .. كنت فعلت لكم أنتم أشياء كثيرة .. ولكن .. إذا كنت لا أصدق كتب التاريخ التى كتبها رجال السلطان «برقوش» وغيره من السلاطين ..
فهل تريدون منى أن أكذب ..
قلنا له فى استعطاف :
ـ لا .. لا سمح الله ..ولكن لا تتركنا هكذا .. واحك لنا ماجرى .. لا تتركنا فى هذا

الحزن وهذه الحيرة ؟!

فقال الشيخ « ظاظا » :

ـ لا تظنوا أننى سألفق لكم حكاية .. كبقية الحكايات ..

وأقول لكم مثلا إن «همام» .. قد اندفع كالفرسان راكبا «فكيهة» شاهرا سيفه خلف « الداودار » ورجاله .. فشتتهم وهزمهم .. وأنقذ « زرزور » من أيديهم ..

قلنا :

ـ نعرف أن «همام» لا يستطيع هزيمة جنود «الداودار» وحده .

قال الشيخ « ظاظا » :

ـ لا تظنوا إذن أننى سأكذب وأقول لكم إن « همام » صنع عروسة جميلة ظريفة .. أو لعبة مثل ماكان يصنع لأطفال القرية فيفرحهم ... وذهب بها إلى قصر السلطان .. فضحكت الأميرة .. وضحك السلطان وجعله وزيره الأول .. وعاشوا جميعا فى التبات والنبات .. بعد أن يصبح « زرزور » فى هذه الحال .. حكيم المملكة ..

قلنا :

ـ وهل حدث غير ذلك . إذن .. ماذا فعل «همام» ؟ يجب أن يفعل «همام» هذا .. يجب عليه أن يلحق بـ «الداودار» .. وأن ينقذ «زرزور» بأى طريقة .. وأن يضحك بنت السلطان .. ويتزوجها .. فيمنع الظلم عن قريته .. ويخلصهم من « الداودار » .. ويجعل الناس يعيشون فى تبات ونبات ..

هكذا تكون الحواديت ياشيخ « ظاظا » ..

قال الشيخ « ظاظا » ضاحكا فى سخرية :

ـ قلتم الحق .. هكذا تكون الحواديت .. أما أنا فلا أحكى لكم حدوتة .. أنا أقص عليكم شيئا من تاريخ قريتنا القديمة أيام السلطان « برقوش » ..

فى الحواديت يتزوج الصياد بنت السلطان .. نعم ..

فى الحواديت تبكى بنت السلطان دون سبب معروف ثم تضحك أيضا .. دون سبب معروف ..

فى الحواديت .. ابن الفلاح قد يصبح أميرا كبيرا ..

أما ما سأحكيه أنا .. فلا يحدث فيه شىء من هذا . وأنا لا أكذب ، إذا أردتم أن أحكى على هذا الشرط .. فأهلا وسهلا . أما إذا لم تقبلوا يا أبناء المدارس .. فأمامكم الراديو .. اسمعوا منه ماشئتم من الحواديت السعيدة .. التى لا أعرفها أنا ..

قلنا وقد أصبنا بخيبة أمل كبيرة :



ـ إذن لن ينقذ « همام » « زرزور » ..

هز الشيخ«ظاظا» رأسهقائلا :

ـ وكيف يستطيع فتىصغيرمثله أن يهزم جيشا وسلطاناو « داودارا » ؟ وسألته طفلة صغيرة :

ـ ألن تضحك بنتالسلطان؟!

ولكن الشيخ ظل صامتا ..فأعادت عليه السؤال .. وهي تهزه .. فقال :

ـ ستضحك الأميرة كثيرا ..هل يرضيك هذا .. ؟!

قلت له :

ـ ولكن ماذا سيحدث لـ «زرزور» .. ألن يتحرك«همام» لإنقاذه .. لو كنت مكانه لفعلت هذا .. حتى لو .. لو اضطررت لقتال جيش كامل ..

ولما ضحك الشيخ « ظاظا »قلت له :

ـ لا تسخر مني .. أقاتل حتى لو قتلوني .. لقد ضحى« زرزور » بحياته في البحث عن القرية السعيدة لكل الناس ..وغنى للأطفال ، وحكى لهم وأسعدهم .. وضحى من أجل





« همام » نفسه ولم يخبر الجنود عن مكانه ، وكان يعرف المكان .. على « همام » إن كان كما تصفه .. أن يضحي من أجله ..

أنت نفسك قلت لنا .. إنه ركب «فكيهة» وتبع الجنود لكي ينقذ « زرزور » حتى ولو اضطر للعمل كمهرج لبنت السلطان ..

ألم يقل «همام» ذلك .. فلماذا لا تريده أن يفعل ؟!..



قال الشيخ « ظاظا » محتجا :

ـ أنا لا أريده أن يفعل ؟!..

ومن أنا حتى أمنعه . لقد قال «همام» ذلك نعم .. أنا لا أنكر.. ولكن فرق كبير بين ماقاله «همام» وما صمم على فعله .. وبين ماحدث ..

ان ماحدث كان غير هذا .. ولا ذنب لى أنا .. لماذا تريد أن تتهمنى بأننى لا أريده أن يفعل مايريد ؟

صحنا جميعا فى وقت واحد :

ـ عم الشيخ « ظاظا » ..

احك لنا ما حدث ..ولا تحيرنا اكثر من ذلك ..

أتعبتنا معك ياشيخ !!

قال الشيخ « ظاظا » :

ـ قلت لكم أن السلطان « برقوش » كان سلطانا عظيم الشأن يحكم اكثر من سبعين مدينة وألف ألف قرية !! وعنده جنود كثيرون يحصل بقوتهم على مايريد، فلا تظنوا أنه سلطان أحمق حتى يعطى ملكه هكذا ببساطة لأى شخص يستطيع أن يجعل ابنته تضحك ..

لقد أعلن ذلك نعم .. ولكن فرق كبير بين كلام السلاطين





وما يفعلون .. يقولون فى الحواديت أن كلام الملوك لا يرد .. ولكن هذا فى الحواديت .

أما معنا هنا .. فانه لو حدث واضحك أحد الناس الأميرة فعلا ... فمن المحتمل أن يكون مصيره نفس مصير الآخرين الذين فشلوا فى اضحاكها إذا فكر أن يتجاوز حدوده .. وطالب بتحقيق وعد السلطان ..

هناك حالة واحدة كان يمكن أن يتحقق فيها وعد السلطان . ذلك إذا أضحك الأميرة رجل مثل « شبار » .. » لأنه مثل « برقوش » .. و « برقوش » قريب « شبار » ..

ولذلك كان «الداودار شبار» حريصا على أن يحضر « همام » بنفسه لكى يضحك له الأميرة .. فيصبح سلطانا .. أو وريثا للسلطان .. لقد كان هناك كثيرون من المماليك يطمعون فى السلطنة .. ولكن إذا أضحك « شبار » الأميرة فسيكون هو أكثرهم استحقاقا للعرش .. بحكم الوعد الذى قطعه السلطان على نفسه..

أما « همام » .. فالتخلص منه سهل .. كلمة واحدة للسياف .





أو حتى لأحد الجنود كافية للتخلص منه .. بالقائه فى جب الرعب ..

قلت له وماهو جب الرعب هذا ؟!

قال « طاظا » :

ـ جب مظلم يلقون فيه بأعدائهم سرا .. فلا يذكرهم أحد إلى الأبد ..

ولقد قلت لكم .. إن «زرزور» .. رجل طيب ..

وهو رجل طيب بالفعل .. ظل طول عمره يحلم لنا وللناس بالقرية السعيدة .. التى لا يعرف أحد أين هى .. حتى هو لم يكن يعرف .. فكان يدور فى البلاد يحكى للناس عنها .. ويبشرهم بالعثور عليها يوما ما .. تلك القرية الغريبة .. التى لا تعرف الخوف أو الجوع .. والتى ليس بها .. «لاشبار ولا برقوش» ..

كان الشيخ «زرزور» .. يحس أحيانا . بأنه سيموت دون أن يصل إلى تلك القرية .. أو يعرف طريقها .. فالدنيا مازالت مليئة بالسلاطين البراقيش والداودارات فكان كل همه أن يبحث عن الأولاد فى كل القرى والبلاد ..





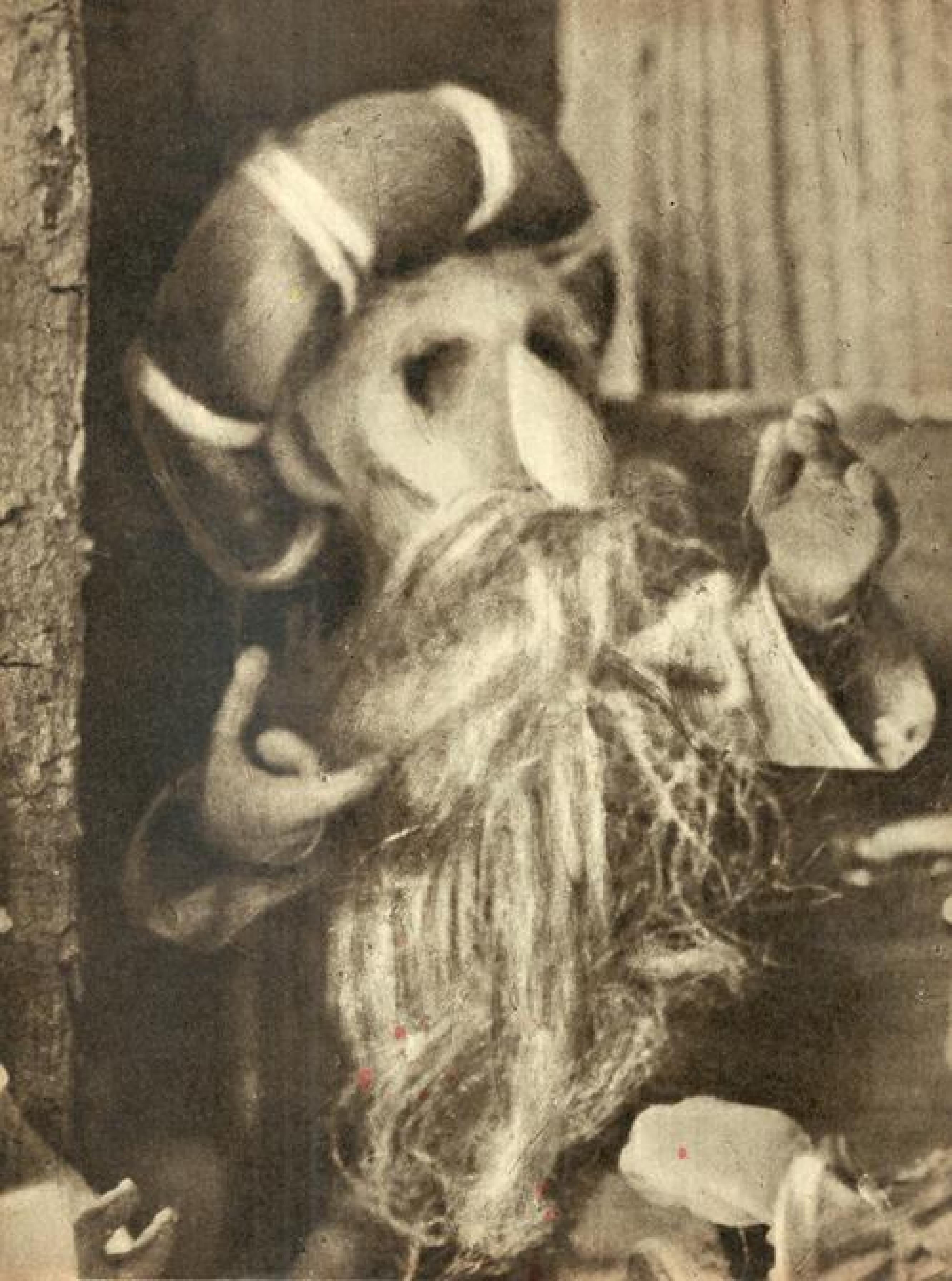
ليحكي لهم عن حلمه .. لعل أحدهم يعرف الطريق إليها يوما ما ..

وقد سحرت حكاياته «همام» كما سحرت كثيرين غيره .. وأخذ «همام» يحلم بتلك القرية .. وقرر بينه وبين نفسه أن يصحب «زرزور» ليبحث عنها .. ولذلك اندفع بحماس لانقاذ «زرزور» .. كان يظن أنه سيستطيع ذلك .. كان على استعداد لأن يضحى بحياته لو اقتضى الأمر القتال من أجل «زرزور» .. من أجل حلمه بأن يصحبه للبحث عن جنته الموعودة ..

وكان «همام» يظن أن الأمر سيتم ببساطة عندما يلحق بالجنود ويتفق مع «شبار» على أن يضحك الأميرة ، بأن يصنع لها لعبة أو يحكي لها حكاية .. ثم يطلب من «شبار» أن يتركه يذهب هو والشيخ في سلام .. إنه لا يريد شيئا أكثر من أن يصحب «زرزور» في رحلة أحلامه .. وفي طريق عودته إلى قريته .. حيث لا خوف ولا جوع ولا أحزان ..

هكذا كان يفكر « همام » .. وعلى هذا انطلق راكبا «فكيهة»







التى مضت بأقصى سرعة وراء الجنود .

لم يفكر « همام » أن يتزوج الأميرة ..

ولا أن يعيش فى التبات والنبات ..

ولم يفكر فى الحصول على شىء ..

كل ما كان يريده هو أن ينقذ « زرزور » ..

فلا تلوموا « همام » إذن على ما حدث ..

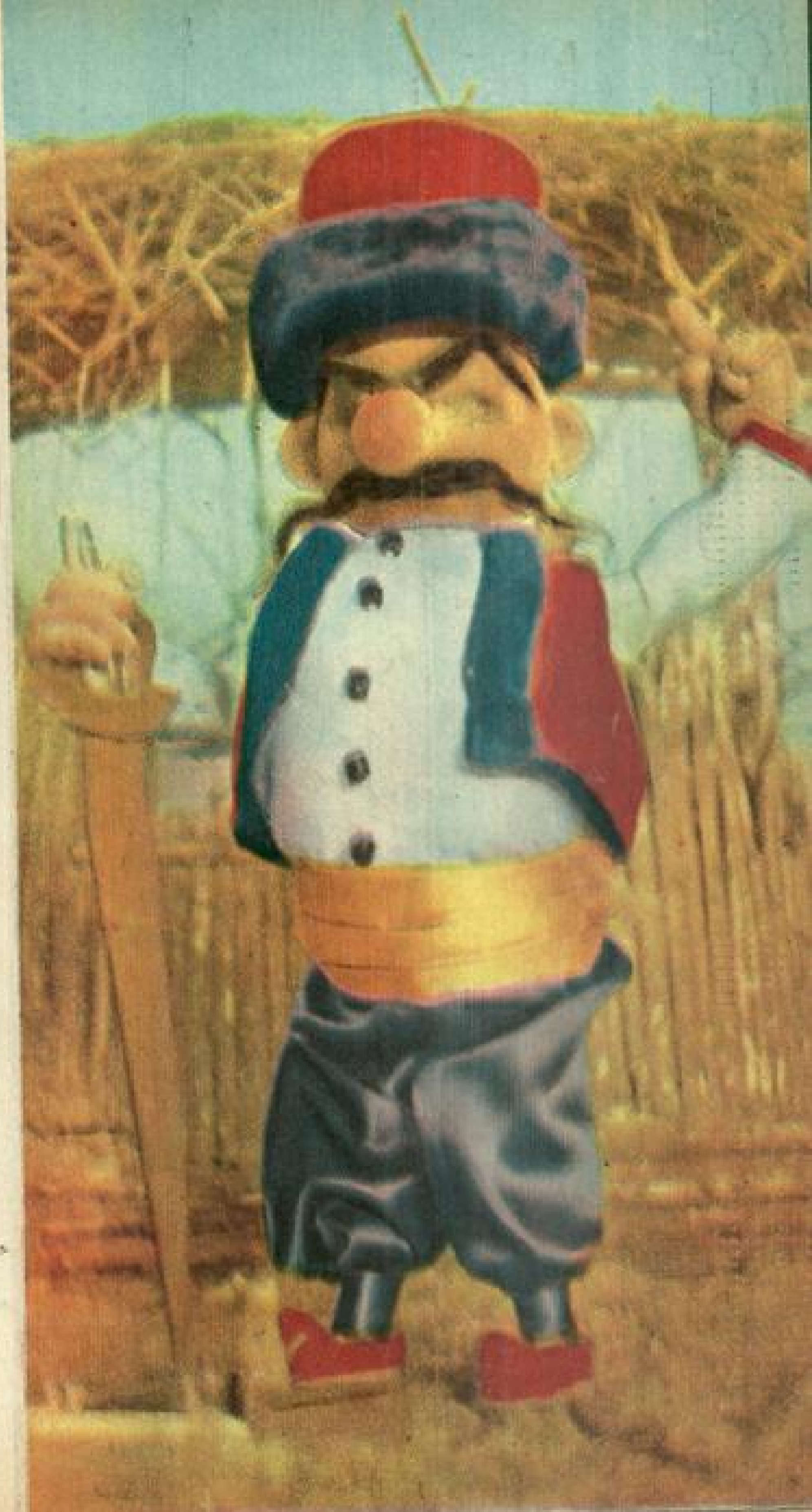
لقد كان يريد أن يضحى فعلا بحياته فى سبيل صديقه العجوز لو اقتضى الأمر ذلك ..





لا تلوموه .. فلم يكن يستطيع أبدا أن يغير الحوادث مهما كانت نواياه .. أو قوته ..
وسكت الشيخ «ظاظا» طويلا.
ولكننا فهمنا لعبته .. فلم نتكلم .. يريدنا أن نقاطعه فيجدها حجة ويتعبنا .. ويجعلنا نحايله
.. ولما وجدنا الشيخ « ظاظا » ساكتين قال :
ـ انطلقت الحمارة «فكيهة» بكل قوتها .. ولكنها لم تكن سوى حمارة ، لقد كان الجنود يركبون







خيولا مدربة .. ولذلك فقد سبقوها بمراحل ..

وليس لـ «فكيهة» ذنب فأنها حمارة . وليست لها قوة الخيل أو سرعتها .. ولذلك فقد مرت ثلاثة أيام بعد وصول الجنود إلى المدينة ..

وقبل أن تصل « فكيهة » بـ « همام » إليها ..

ومن تلك الأيام الثلاثة .. وحتى قبل تلك الأيام الثلاثة .. بيوم رابع .. حدثت أشياء كثيرة .. لا ذنب فيها لأحد .. لا لـ « همام » ولا للحمارة .. ولا حتى لـ «الداودار» نفسه ..

ـ لقد ضحكت بنت السلطان .. لا تسألونى كيف حدث ذلك فأنا لا أعرف كثيرا .. لم أكن موجودا لأعرف .. وحتى لو كنت موجودا لما عرفت أكثر مما أعرف الآن .. لقد أثار ذلك دهشة الجميع حتى الأميرة نفسها ..

الذي حدث أن السلطان كان قلقا منذ ذهب «الداودار» وجاءه برجل أفاق متشرد قيل إنه يعرف نوادر كثيرة وفكاهات .. وأنه يدور فى الأسواق ..







يصنع ألعابا تعجب الناس ..فهو يأكل الزجاج .. ويخرج النار من أنفه .. ويستطيع أن يخفي فيلا في منديله .. جاء الوزير بالرجل ليرفه عن السلطان ، وليزيل قلقه ..وأمر السلطان بإحضار الأميرة لتشاهد الرجل معهم .. مجرد اجراء عادي .. لم يكن يظن أن بقدرة هذا الرجل الأفاق أن ينجح في إضحاكها ، وقد فشل قبله أربعون من خيرة الحكماء والمهرجين .. وحضرت الأميرة ..

وصمت الجميع وابتدأ الرجل يصنع حيله وألعابه .. وفجأة التفت إلى الأميرة وقال لها :

ـ هل تعرفين يا أميرتي أين تذهب الشمس بعد أن تغرب ؟!.

فوجئت الأميرة بسؤال الرجل .. فقالت .. في دهشة :

ـ لا .. لا أعرف ..





ثم غلبها الفضول فسألت :

ــ هل تعرف أنت ؟!

ودهش الجميع لأن الأميرة تكلم الرجل .. وعادت تسأله :

ــ هل تعرف أين تذهب الشمس بعد الغروب ؟! ..

وصمت الرجل قليلا ثم قال :

ــ انهم يكسرونها ويصنعون منها نجوما .. هي تلك التي تشاهدينها منثورة في السماء :

لم يضحك أحد .. فقد كانت نادرة سخيفة ومعروفة .. ولكن الأميرة وسط دهشة الجميع .. انفجرت في الضحك ..

وأفاق الحاضرون من دهشتهم .. وانطلقوا يضحكون مع الأميرة .. ورقص السلطان فرحا .. وانقلب حال القصر .. وهاص .. وزاط .. وخرجت الرسل تبشر الرعية والشعب بما حدث .. وعين الرجل الأفاق مهرجا [illegible] الأسمر ومضحكا للأميرة .. وكان يحلم [illegible] يعرف حدوده فلم يطمع في أكثر من ذلك .. وأصبح الوزير وارثا للسلطنة .. وزوجا [illegible] للأميرة

وأمر السلطان بتوزيع الهدايا



على أهل المدينة .. وان كان حريصا على أن يأمر الجنود بالحرص عليها .. حتى يحين وقت جمعها مرة أخرى بعد انقضاء الأيام الثلاثة .. التى أمر بأن تكون عيدا .. تمنع خلالها الضرائب والغرامات .. إكراما لشفاء الأميرة ..

فى ذلك اليوم .. وصل « الداودار » وجنوده ..

ولما علم بما حدث كاد يموت من الغيظ .. وصب غضبه على دماغ « زرزور » .. فأمر بالقائه فى الجب المرعب .

وذهب إلى القصر حاملا أكبر قدر ممكن من الهدايا والخيرات التى جمعها فى طريق عودته .. حتى ينسى السلطان فشله .. وضحك مع الضاحكين غصبا .. ورقص مع الراقصين وقلبه مقهور .. وهنأ الوزير بما ناله من حظ، والغيظ يكاد يقتله .. وأحس الوزير بذلك .. ولكنه تجاهله مؤقتا ..

وانقضت أيام العيد الثلاثة .. وعاد الناس إلى حياتهم العادية .. وعاد السلطان أيضا إلى حياته العادية .. استهلها بجمع ماوزع من هدايا مضاعفا .. وابتدأ يتفنن فى فرض الضرائب الغريبة ويتفنن فى اختراع الوسائل التى يحصل بها على الأموال من الناس ..

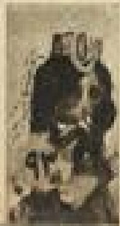
وذكره الوزير بفشل « الداودار » .. وزين له أن يستولى على أملاكه كلها لنفسه، فهو لا يستحقها .. وما كان أسهل أن يقتنع السلطان بذلك .. مادام فى الأمر مال جديد يضاف إلى خزانته ..

وقد حدث .. ووجد « الداودار » نفسه مقبوضا عليه ومسوقا إلى الجب المرعب حيث ألقى بـ « زرزور » وغيره من قبل ..

وكان ذلك فى نفس اليوم الذى وصل فيه « همام » وحمارته .. إلى المدينة ..

وكان من الطبيعى ألا يجد أحدا فى المدينة يعرف شيئا عن « زرزور » .. أو يذكر شيئا عن « الداودار » ..

فقد كان الجميع يعرفون أن من يذكر أحدا ممن ألقوا فى الجب فلابد أن يلحق به .. ولذا لزم الجميع الصمت .. ونصح الطيبون



منهم ذلك الفتى الصغير الغريب.. أن ينسى الموضوع بأكمله . خيرا له وللناس .. ولحمارته ذات البسمة التى تشبه ابتسامة الطفل الصغير ..

وعاد «هشام» و «فكيهة» إلى الطريق مرة أخرى ..

وهذا ماحدث بالتمام والكمال

صحنا :

ياعم « ظاظا » .. ليس هذا تماما ولا كمالا .. لقد ضحكت علينا .

على الأقل قل لنا ماذا حدث لـ « هشام » وللحمارة .

لايمكن أن نسمح لك بأن تفعل بـ « زرزور » ذلك .. وأن يموت معه حلمه القديم .

فغضب الشيخ وصاح قائلا :



ــ أفعل به ذلك ؟! .. أنا مافعلت ذلك به ..إنه «الداودار» ولست أنا .. لو كان الأمر بيدى .. لما حدث ذلك ..

وكان ذلك صحيحا ..

لماذا تلوم الشيخ «طاظا» .. وهو مجرد راو .. وسكتنا طويلا .... ثم قلنا :

ــ حسن .. حدث ماحدث .ولكن هل عاد «همام» و«فكيهة» إلى القرية ؟

قال الشيخ « طاظا » :

ولماذا يعودان .. لقد مضيا إلى الدنيا الواسعة يبحثان عن قرية « زرزور » ..فلقد صمم «همام» على أن يعثر عليها إكراما لخاطر صاحبه وتحقيقا لحلمه ..وصاحبته «فكيهة» .. التى كانت تعرف كثيرا عن الطرق والبلاد ..





قلت للشيخ «ظاظا» فى حزن :

وهل عثر «همام» على تلك القرية العجيبة التى لا تعرف الخوف او الأحزان .. ولا تعرف الظلم أو الفقر ياعم الشيخ ؟

قال الشيخ « ظاظا » وقد نفد صبره :

— ومن أين لى أن أعرف .. لو أننى عرفت لذهبت إليها على الفور .! لم يحك لى أحد ماحدث بعد ذلك لـ «همام» .. حتى حمارتى « ست الملوك » لا تعرف شيئا عما جرى لـ «فكيهة» ، فتاريخ الحمير لم يكتبه أحد ..

وهمس الشيخ وقال كأنه يحلم :

— لقد فكرت أنا نفسى أن اذهب للبحث عن قرية «زرزور» هذه ..

وقد فعلتها .. أخذت حمارتى « ست الملوك » .. وذهبت مرة .. لكن ..

قلنا فى لهفة .. وتعجب !! :

— ولكن .. ماذا حدث ؟!..

قال الشيخ « ظاظا » وقد عاد الحزن إلى صوته وعينيه :

— يا أبنائى .. الطرق الآن خطرة .. مليئة بالسيارات والمركبات السريعة التى لا ترحم والسماء عامرة بالطيارات والصواريخ التى جعلت المهمة صعبة على «ست الملوك» وأمثالها.

وحتى أنا .. لا أصلح لهذه المهمة .. فأنا عجوز . وأخاف من خيالى ومن أصوات هذه الآلات والأشياء العجيبة ..

راحت علينا .. أنتم صغار وشطار .. وتعرفون هذه الأشياء وقد تجدون هذه القرية العجيبة بأنفسكم يوما ما ..

بارك الله لكم فيها .. حين تجدونها .. أما الآن فقد تعبت من كثرة الكلام .. وهذا هو حكم السن والشيخوخة .. ياأصحابى .. فاتركونى فى سلام .. لأننى أريد أن أنام فى هدوء .. لكى أحلم لكم بحكاية أخرى .. أحكيها لكم فى ليلة أخرى ... يا أعز الناس . !

تمت

/ قام بتصوير لوحات الكتاب الفنان محمود عارف



ح

قصص الهلال للأولاد والبنات

رئيس مجلس الادارة:
احمد بهاء الدين

رئيسة التحرير:
نتيلة راشد
(ماما لبنى)

مديرة التحرير:
بثينة البيلى

تصدر عن: دار الهلال
١٦ محمد عز العرب - القاهرة

صدر من هذه السلسلة:
- تنابلة الصبيان
- ٨٠ يوم حول العالم
- التنين الضاحك
- مذكرات حصان
- خيال المآتة
- بنت الشمس والقمر
- بلا عائلة
- تنابلة الصبيان وتنابلة الحواة
- ضحكة بنت السلطان

قصص الهلال للأولاد والبنات

ضحكة بنت السلطان

الثمن ٢٠ قرشا

